نهاية الأرب في فنون الأدب

كتاب ضخم ، عداده في الموسوعات الكبرى ، جمع فيه النويري خلاصة التراث العربي في شقّيه ، الأدب والتاريخ ، وأنجزه قبل عام 721هـ في ثلاثين مجلدة تضم نيفًا وأربعة آلاف وأربعمائة صفحة ، وكان كما ذكر ابن كثير ينسخه بيده ويبيع منه النسخة بألف درهم .
وقد ضاع الكتاب في القرون الأخيرة ، حتى عثر المرحوم أحمد زكي باشا على نسخة منه في إحدة مكتبات الأستانة ، فنقل منه صورة شمسة وحملها إلى القاهرة ، وتألفت لجنة لتحقيقه وطباعته ، فرغت من طباعة المجلد الأول منه عام 1920م وفرخت من طباعة الجزء قبل الأخير عام 1992م .
وتأتي قيمة الكتاب في أنه نموذج فذ لترتيب التراث الأدبي ، وخاصة في أجزائه الإثني عشر الأولى ، وما بعد ذلك يبدأ قسم التاريخ فيستوعب بقية أجزاء الكتاب الثلاثين ، ومنها الأجزاء 16 و 17 و 18 في السيرة النبوية ، وقد لخص النويري في كتابه حوالي ثلاثين كتابًا من كتب الأدب كالأغاني وفقه اللغة ومجمع الأمثال ومباهج الفكر وذم الهوى ، ونجد ملخص الأغاني كاملاً في الجزء الرابع والخامس من الكتاب ، كما نقف على ملخص مباهج الفكر في الجزء الثاني عشر منه .
إضافة إلى تلك الملخصات نقل النويري من أكثر من 76 كتابًا ما بين مخطوط ومطبوع لكبار الأدباء والمنشئين والمؤرخين .
بذلك نعلم أن فائدة الكتاب تنحصر فائدتين :
1- الأجزاء الأخيرة من كتابه التاريخ ، وهي الأجزاء التي اعتمدها ابن تغري بردي في مشاهدات النويري .
2- طريقة ترتيب التراث الأدبي للقرون السبعة التي سبقت مولد النويري .
ونترك النويري يحدثنا عن هذه الطريقة بقوله :
(فامتطيت جواد المطالعة وركضت في ميدان المراجعة ، وحيث ذل لي مركبها ، وصفا لي مشربها ، آثرت أن أجرد كتابًا استأنس به وأرجع إليه وأعول فيما يعرض لي من المهمات عليه ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب ، بينة التقسيم والتبويب ، كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام هي :
1- السماء والأثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية .
2- في الإنسان وما يتعلق به .
3- في حياة الحيوان .
4- النبات : ويشتمل على قسم خاص في التداوي بها .
5- التاريخ : آخره الكلام على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون .

المرجع : منهج النويري في كتابه نهاية الأرب ، د. عبد الحليم الندوي .
المراجع العربية العامة والتراث ، د. عبد التواب شرف الدين ص 60 .

ترجمة المؤلف

النويري
677-733هـ / 1278-1333م

أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري شهاب الدين النويري .
عالم بحاث غزير الاطلاع ، نسبته إلى نويرة من قرى بني سويف بمصر ومولده ومنشؤه بقوص ، اتصل بالسلطان الملك الناصر ووكله السلطان في بعض أموره ، وتقلب في الخدم الديوانية ، وباشر نظر الجيش في طرابلس ، وتولى نظر الديوان بالدقهلية والمرتاحية ، وكان ذكي الفطرة ، حسن الشكل ، فيه أريحية وود لأصحابه .
وله نظم يسير ونثر جيد ، ويكفيه أنه مصنف (نهاية الأرب في فنون الأدب – ط) كبير جدًا وهو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره ، ويقول فازيليف : إن نهاية الأرب على الرغم من تأخر عصره يحوي أخبارًا خطيرة عن صقلية نقلها عن مؤرخين قدماء لم تصل إلينا كتبهم مثل ابن الرقيق وابن رشيق وابن شداد وغيرهم ، توفي في القاهرة .

الفن الأول

السماء
القسم الأول
في السماء وما فيها
وفيه خمسة أبواب:
الباب الأول
من القسم الأول من الفن الأول
خلق السماء
في مبدأ خلق السماء

قال الله تعالى: "أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها". والسماء تذكر وتؤنث. فشاهد التذكير قول الله "عز وجل": "السماء منفطر به"؛ وقول الشاعر:

فلو رفع السماء إليه قوماً، لحقنا بالسماء مع السحاب!

وشاهد التأنيث، قوله "تبارك وتعالى": "إذا السماء انفطرت"؛ وقول الشاعر:

يا رب، رب الناس في سماته!
ما قيل في أسماء السماء وخلقها

قد نطقت العرب للسماء بأسماء. منها: الجرباء. وسميت بذلك لكثرة النجوم. منها: الخلقاء. لملاستها.
وبرقع. والرقيع. ومنه قول رسول الله "صلى الله عليه وسلم" لسعد بن معاذ: "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة". أي من فوق سبع سماوات. ومنها: الطرائق. قال الله تعالى: "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق" . والسماء مخلوقة من دخان.
حكى في سبب حدوث الدخان أن الله تعالى خلق جوهرة، وصف من طولها وعرضها عظما. ثم نظر إليها نظر هيبة، فانماعت، وعلاها من شدة الخوف زبد ودخان. فخلق الله من الزبد الأرض، وفتقها سبعا؛ ومن الدخان السماء، وفتقها سبعا. ودليله قوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان". قال: ولما فتق الله تعالى السماوات أوحى في كل سماء أمرها. واختلف
المفسرون في الأمر، ما هو؟ فقال قوم: خلق فيها جبالا من برد وبحارا؛ وقال قوم: جعل في كل سماء كوكباً، قدر عليه الطلوع والأفول، والسير والرجوع. وقال قوم: أسكنها ملائكة سخرهم للعالم السفلى، فوكل طائفة بالسحاب وطائفة بالريح، وجعل منهم حفظه لبنى آدم وكاتبين لأعمالهم ومستغفرين لذنوبهم.

الباب الثاني:
في هيئة السماء
في هيئتها

ذهب المفسرون لكتاب الله عز وجل أن السماء مسطوحة، بدليل قوله تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت".
وقال تعالى: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن". ويطلق على مجموعها فلك، لقوله تعالى: "وكل في فلك يسبحون". وذهب الحسن إلى أن الفلك غير السماوات، وأنه الحامل بأمر الله تعالى للشمس والقمر والنجوم.
قالوا: ولما فتق الله تعالى رتق السماوات، جعل بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام. وروى عن أبي هريرة "رضي الله عنه"، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس هو وأصحابه، إذ أتى عليهم سحاب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه. ثم قال: أتدرون ما فوقكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: هذا الرقيع: سقف محفوظ، وموج مكفوف. ثم قال: هل تدرون ما بينكم وبينها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: بينكم وبينها خمسمائة سنة. ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: سماء في بعد ما بينها خمسمائة سنة. قال ذلك حتى بلغ سبع سماوات، ما بين كل سماءين، وما بين السماء والأرض. ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن فوق ذلك العرش. وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين. ثم قال: هل تدرون ما تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال إنها الأرض. ثم قال: أتدرون ما تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن تحتها أرضاً أخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة. حتى عد سبع أرضين، بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة.أخرجه أبو عيسى الترمذي، في جامعة.
ويروى عن ابن عباس "رضي الله عنهما" أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" كان جالساً بالبطحاء، بين أصحابه، إذ مرت عليهم سحابة. فنظروا إليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تدرون ما اسم هذه؟ قالوا: نعم. هذا السحاب. فقال صلى الله عليه وسلم: والمزن. قالوا: والمزن. قال: والعنان. قالوا: والعنان. فقال: هل تدرون ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري. قال: خمسمائة عام. وبينها وبين السماء التي فوقها
كذلك. "حتى عدّ سبع سماوات". ثم قال: وفوق السماء السابعة بحرٌ، بين أعلاه وأسفله كما بين سماء إلى سماء "وفي لفظ: كما بين السماء والأرض". وفوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.
وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي، قال: "ثم ما بين السماء السابعة والكرسي مسيرة خمسمائة عام. ثم ما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام. والعرش فوق الماء." ولم يذكر الأوعال.
وجاء في رواية أخرى ذكر الكرسي، وأن السماوات في ضمنه. وهي بالنسبة إليه كحلقه ملقاة في أرض فلاة، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذرة ملقاة في أرض فلاة فيحاء. "وفي رواية كحلقه".
وروي أن أبا ذرّ رضي الله عنه قال: يا رسول الله: أي أية أنزلت عليك أعظم؟ قال: أية الكرسيّ. ثم قال: يا أبا ذرّ! أتدري ما الكرسيّ؟ قلت: لا؛ فعلمني يا رسول الله، مما علمك الله. فقال: ما السماوات والأرض فيهن في الكرسي، إلا كحلقة ألقاها ملق في فلاة. وما الكرسي في العرش، إلا كحلقة ألقاها ملق في فلاة. وما العرش في الماء، إلا كحلقة ألقاها ملق في فلاة. وما الماء في الريح، إلا كحلقة ملق في فلاة. وجميع ذلك في قبضة الله كالحبة، وأصغر من الحبة، في كف أحدكم. تعالى الله سبحانه. رواه أبو حاتم في كتاب العظمة.

والقول في هيئة السماء، على مذاهب أصحاب علم الهيئة، كثير. أغضينا عنه، لآنه لا يقوم عليه دليل واضح. فلذلك اقتصرنا على ذكر المنقول دون المعقول.
فلنذكر ما جاء في الأمثال التي فيها ذكر السماء. وما وصفها الشعراء به وشبهوها.
أما الأمثال
فقولهم: أرفع من السماء، للمبالغة.
وقول الشاعر:

من ذا رأى أرضاً بغير سماء؟
إن السماء ترحى حين تحتجب.

إن السماء، إذا لم تبك مقلتها، لم تضحك الأرض عن شئ من الزهر.
وأما الوصف والتشبيه فمنه قول عبد الله بن المعتز:

كأن سماءنا لما تجلت خلال نجومهم عند الصباح
رياض بنفسج خضل، نداه تفتح بينه نور الأقاح

وقال آخر:

كأن سماءنا، والشهب فيها، وأصغرها لأكبرها مزاحم
بساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم

ونحوه قول الآخر:

كأن سماء الأرض نطع زمرد، وقد فرشت فيه الدنانير للصرف

وقال آخر:

ورأيت السماء كالبحر إلا أن مرسوبه من الدر طافى.
فيه ما يملأ العيون كبير وصغير ما بين ذلك خافي.

وقال التنوخي يصف ليلة:

كأنما نجومها، نصب عيون الرمق
دراهم قد نثرت على بساط أزرق

وقال أبو طالب الرقي:

وكأن أجرام السماء، لوامعا، درر نثرن على بساط أزرق.

وقال ظافر الحداد:

كأن نجوم الليل، لما تبلجت، توقد جمر في خلال رماد.
حكى، فوق ممتد المجرة شكلها، فواقع تطفو فوق لجة وادي.

وقال آخر:

كأن النجوم، نجوم السما، وقد لحن للعين من فرط بعدِ،
مسامير من فضة سمرت على وجه لوح من اللازورد.

وقال محمد بن عاصم:

ترى صفحة الخضراء، والنجم فوقها، ككف سدوسى بدا فيه درهم.
ترى، وعلى الآفاق أثواب ظلمة، وأزرارها منها شمال ومرزم.

وفي الفلك قال أبو العلاء المعري:

يا ليت شعري! وهل ليت بنافعه ماذا وراءك أو ما أنت يا فلك؟
كم خاض في إثرك الأقوام واختلفوا قدما! فما أوضحوا حقا ولا تركوا.
شمس تغيب ويقفوا إثرها قمر، ونور صبح يوافي بعده حلك.
طحنت طحن الرحى من قبلنا أمما شتى، ولم يدر خلق أية سلكوا.
وقال، إنك طبع خامس، نفر. عمري! لقد زعموا بطلاً وقد أفكوا!
راموا سرائر للرحمن حجبها. ما نالهن نبي، لا ولا ملك.
وقال الرئيس أبو علي بن سينا:
بربك! أيها الفلك المدار، أقصد ذا المسير أم اضطرار؟
مدارك، قل لنا، في أي شيء؟ ففي أفهامنا منك ابتهار!
وعندك ترفع الأرواح؟ أم هل مع الأجساد يدركها البوار؟
وفيك الشمس رافعة شعاعاً، بأجنحة قوادها قصار؟
قطوف، ذي النجوم اللآلى؟ هلال أم يد فيها سوار؟
وشهب، ذي المجرة أم ذبال عليها المرخ يقدح والعفار؟
وترصيع، نجومك أم حباب تؤلف بينها اللجج الغزار؟
تمد رقومها ليلاً وتطوى نهاراً، مثل ما طوى الإزار!
فكم بصقالها صدى البرايا! وما يصدا لها أبداً غرار.
وتبدو ثم تخنس راجعات وتكنس مثل ما كنس الصوار.
فبينا الشرق يقدمها صعودا تلقاها من الغرب انحدار.
هي العشواء، ما خبطت هشيم هي العجماء ما جرحت جبار.
وقال أبو عبادة البحتري:
أناة! أيها الفلك المدار! انهب ما تصرف أم خيار؟
ستبلى مثل ما نبلى، وتفنى كما نفنى، ويؤخذ منك ثار.

الباب الثالث:
من القسم الأول من الفن الأول
الملائكة

في ذكر الملائكة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أطت السماء، وحق لها أن تئط. ما فيها موضع أربع أصابع، إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد.
والملائكة أولو أجنحة: مثنى، وثلاث، ورباع، وأكثر من ذلك. فإنه قد ورد أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. وهي الصورة التي رآه النبي صلى الله عليه وسلم فيها مرتين: أحدهما في الأرض، وقد سد ما بين الخافقين. ووصفه الله تعالى بالقوة، فقال تعالى: "ذي قوة عند ذي العرش مكين". ومن قوته، أنه اقتلع مدائن قوم لوط، وكانت خمس مدائن، من الماء الأسود،

وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء، حتى أن أهل السماء يسمعون نباح كلابهم، وأصوات دجاجهم؛ ثم قلبها.
والمرة الثانية رآه صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى.
قال الله تعالى: " لقد رأه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى".
وكان هبوط جبريل عليه السلام على الأنبياء صلوات الله عليهم ورجوعه في أوحي من رجع الطرف.
وعظماء الملائكة أربعة، وهم: إسرافيل، وميكائيل، وجبرائيل، وعزرائيل. وأقربهم من الله تعالى منزلة، إسرافيل.
فإذا أراد الله تعالى بوحيٍ، جاء اللوح المحفوظ حتى يقرع جبهة إسرافيل، فيرفع رأسه، فينظر فيه. فإن كان إلى السماء، دفعه إلى ميكائيل؛ وإن كان إلى الأرض، دفعه إلى جبرائيل؛ وإن كان بموت أحد، أمر به عزرائيل صلوات الله عليهم!
وقد روي في قوله تعالى: "فالمدبرات أمرا"، هم أربعة من الملائكة جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، فجبريل على الجنود والرياح، وميكائيل على القطر والنبات، وعزرائيل على قبض الأرواح، وإسرافيل يبلغهم ما يؤمرون به.
وجعل الله تعالى لهم أن يتمثلوا للبشر على ما شاءوا من الصور، كما كان جبريل يتمثل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على صورة دحية الكلبى مرارا، وفي صورةٍ غيره من الرجال؛ وكما تمثل لمريم عليها السلام بشر سوياً. ونزلت الملائكة في غزوة بدر على الخيول المسومة، وقد سدلوا ذوائب عمائمهم على مناكبهم. وهم مخلوقون من نور.
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

الباب الرابع: من القسم الأول من الفن الأول
الكواكب المتحيرة

في الكواكب السبعة المتحيرة قال الله تعالى: "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس". ذهب المفسرون إلى أنها هي الكواكب السبعة: زحل، المشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.
وقالوا: إن هذه الكواكب هي المنيعة بقوله تعالى: "فالمدبرات أمرا". وسميت كنسا لأنها تجري في البروج ثم تكنس أي تستتر كما تكنس الظباء؛ وخنسا لاستقامتها ورجوعها. وقيل الخنس والكنس منها خمسة، دون الشمس والقمر. وسميت خنساً لأن الخنوس في كلام العرب الانقباض. وفي الحديث الشريف الشيطان يوسوس للعبد، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي انقبض ورجع. فيكون في الكوكب بمعنى الرجوع. وكنسا من قول العرب كنس الظبي إذا دخل الكناس، وهو مقره؛ ويكون في الكوكب اختفاءه تحت ضوء الشمس. وأسماء هذه الكواكب عند العرب مشتقة من صفاتها.
فقالوا في زحل: زحل فلان إذا أبطأ، وبذلك سمي هذا الكوكب لبطئه في السماء. وقيل الزحل والزحيل الحقد وهو في طبعه.

وهذا الكوكب عند المفسرين هو المعنى بقول الله عز وجل "والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب".
وقالوا في المشتري: إنه إنما سمي بذلك لحسنه، كأنه اشترى الحسن لنفسه. وقيل لأنه نجم الشراء والبيع، ودليل الأموال، والأرباح.
وقالوا في المريخ: إنه مأخوذ من المرخ "وهو شجر تحتك بعض أغصانه ببعض فتورى ناراً" فسمي بذلك لاحمراره. وقال آخرون المريخ سهم لا ريش له إذا رمي به لا يستمر في ممرّه وكذلك المريخ، فيه التواء كثير في سيره وحكمه، فشبه بذلك.
وقالوا في الشمس: إنها لما أن كانت واسطة بين ثلاثة كواكب علوية وثلاثة سفلية، سميت بذلك لأن الواسطة التي في المخنقة تسمى شمسة.
وقالوا في الزهرة: أنها مشتقة من الزاهر، وهو الأبيض النير من كل شيء.
وقالوا في عطارد: إنه النافذ في الأمور، ولهذا سمي بالكاتب. وهكذا هذا الكوكب كثير التصرف مع ما يلابسه ويقارنه.
وقالوا في القمر: إنه مأخوذ من القمرة، وهي البياض؛ والأقمر الأبيض.
والفرس تسمى هذه الكواكب بلغتها كيوان، ويعنون به زحل؛ وتير، ويعنون به المشتري " وبعضهم يسميه البرجيس"؛ وبهرام ويعنون به المريخ؛ ومهر ويعنون به الشمس؛ و أناهيد ويعنون به الزهرة "وبعضهم يسميها بيدخت" ، وهرمس "ويعنون به عطارد"، وماه "ويعنون به القمر".
وقد جمع بعض الشعراء أسماء هذه الكواكب في بيت واحد من بيتين يمدح بهما بعض الرؤساء فقال:

لازلت تبقى وترقى للعلا أبداً ما دام للسبعة الأفلاك أحكام!
مهر، وماه، وكيوان، وتيرمعاً وهرمس، وأناهيد، وبهرام!

وقال أبو إسحاق الصابي:

نل المنى في يومك الأجود، مستنجحاً بالطالع الأسعد!
وارق كمرقى زحل صاعداً إلى المعالي أشرف المقصد!
وفض كفيض المشتري بالندى إذا اعتلى في أفقه الأبعد!
وزد على المريخ سطواً بمن عاداك من ذي نخوة أصيد!
واطلع كما تطلع شمس الضحى كاسفة للحندس الأسود!
وخذ من الزهرة أفعالها في عيشك المستقبل الأرغد!
وضاه بالأقلام في جريها عطارد الكاتب ذا السؤدد!
وباه بالمنظر بدر الدجى وافضله في بهجته وازدد!

وقد اختص كل كوكب من هذه الكواكب بقول. سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجة، وينهض به الدليل من الكتاب والسنة، وما يتمثل به مما فيه ذكرها، وما ورد في ذلك من الأوصاف والتشبيهات: نظماً ونثراً مما وقفت عليه في أثناء مطالعتي لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم. وعدلت عن أقوال المنجمين لما فيها

من سوء الطوية وقبح الإعتقاد: لأن منهم من يرى أن للنجوم في الوجود تأثيرات وأفعالاً. أعاذنا الله تعالى من ذلك!

ما قيل في الشمس
"والشمس هي النير الأعظم" وقد ذهب بعض المفسرين لكتاب الله تعالى إلا أن نور الشمس والقمر في سائر السماوات بدليل قول الله عز وجل "وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً.
وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الشمس والقمر وجوههما إلى السماء وأقفاؤهما إلى الأرض وفي حديث آخر وجوههما إلى العرش وأقفاؤهما إلى الأرض.
وفي حديث آخر أن الشمس تكون في الصيف في السماء الخامسة، وفي الشتاء في السماء السابعة تحت عرش الرحمن.
وزعموا أن حركتهما وحركة سائر الكواكب مستقيمة غير مستديرة، وأن الشمس تقطع سماء الدنيا في يومها، وتغيب في الأرض في عين حمئةٍ. ومعنى حمئة ذات حمأة.
وقد جاء في تفسير قوله تعالى "والشمس تجري لمستقرٍّ لها" أي إلى موضع قرارها، لأنها تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع؛ ومن قرأ لا مستقر لها أي هي دائبة السير ليلاً ونهاراً. وهي قراءة شاذة.
وقد قال الله تعالى "وسخر لكم الشمس والقمر دائبين" وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنها تجري لمستقر لها تحت العرش، فتخرّ ساجدة؛ فلا تزال كذلك حتى يؤذن لها في الطلوع. ويوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت؛ وذلك طلوعها من مغربها.
وذهب وهب بن منبِّه إلى أن الشمس على عجلة لها ثلثمائة وستون عروة، وقد تعلق بكل عروة ملكٌ؛ يجرونها في السماء ودونها البحر المسجور في موج مكفوف كأنه جبل ممدود في الهواء، ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت ما على وجه الأرض من شيء حتى الجبال والصخور. وروي عن كعب أنه قال: خلق الله القمر من نور وخلق الشمس من نار.
وقال تعالى "ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً". والسراج لا يكون إلا من نار؛ وهما مضيآن لأهل السماوات؛ كما يضيآن لأهل الأرض. وقد تقدم الدليل على ذلك.

ما يتمثل به مما فيه ذكر الشمس
يقال: أشهر من الشمس. أحسن من الشمس. أدل على الصبح من الشمس. ومن أنصاف الأبيات
وهل شمس تكون بلا شعاع في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

ولو لم تغب شمس النهار لملت الشمس نمامة والليل قواد
الشمس طالعة إن غيب القمر وربما تنكسف الشمس
والشمس تنحط في المجرى وترتفع إذا الشمس لم تغرب، فلا طلع البدر
ومن الأبيات قول الطائي:
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد.
وقال علي بن الجهم.
والشمس لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقد.
وقال أبو تمام:
وإن صريح الرأي والحزم لامرئ إذا بلغتهُ الشمس، أن يتحولا.
وقوله:
وكل كسوفٍ في الدراري شنيعةٌ، ولكنه في الشمس والبدر أشنع.
وقوله أيضاً:
أعندك الشمس تجري في منازلها، وأنت مشتغل الألحاظ بالقمر؟
وقال البحتري:
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى، ويدنو الضوء منها والشعاعُ.
وقال ابن الرومي:
ورأيته كالشمس: إن هي لم تُنل فالدفء منها والضياء ينال
وقال أيضاً:
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الأرض بالظلم.
وقال أيضاً
كالشمس في كبد السماء محلها، وشعاعها في سائرالآفاق.
وقال العباس بن الأحنف:
هي الشمس مسكنها في السماء. فعز الفؤاد عزاء جميلاً!
وقال أبو عبيد البكري:
والشمس يستغنى، إذا طلعت، أن يستضاء بغرة البدر.
وقال أبو الطيب المتنبي:
كالشمس لا تبتغي بما صنعت منفعة عنده ولا جاها.
وقال ابن لنكك البصري:
وهبك كالشمس في حسن؛ ألم ترها يفر منها إذا مالت إلى الضرر؟
وقال ابن عباد:
فقلت: وشمس الضحى تحتمى إذا بسطت في المصيف الأذى.
وقال ابن مسعويه الخالدي:
لا يعجبنك حسن القصر تِنزلهُ فضيلة الشمِس ليست في منازلها.
وقال أبو الفتح البستي:

فالحرُّ حَرُّ عزيز النفس حيث ثوى، والشمس في كل بُرجٍ ذات أنوار.

وصف الشمس وتشبيهها من ذلك قول الوزير المهلبي:

الشمس في مشرقها قد بدت منيرةً ليس لها حاجب
كأنها بودقةٌ أحميت، يجول فيها ذهب ذائب.

وقال ظافر الحداد:

انظر لقرن الشمس بازغةً في الشرق تبدو ثم ترتفع!
كسبيكة الزجاج ذائبةً حمراء ينفخها فتتسع.

وقال أبو هلال العسكري:

والشمس واضحة الجبين كأنها وجه المليحة في الخمار الأزرق!
وكأنها عند انبساط شعاعها تبر يذوب على فروع المشرق!

وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي:

أو ما ترى شمس الأصيل عليلةً تزداد من بين المغارب مغربا؟
مالت لتحجب شخصها فكأنها مدت على الدنيا ملاءً مذهبا!

ومما وصفت به - وقد قابلت القمر - قول الشاعر:

أما ترى الشمس، وهي طالعةٌ، تمنع عنا إدامة النظر؟
حمراء صفراء في تلونها كأنها تشتكي من السهر.
مثل عروسٍ غداة ليلتها تمسك مرآتها من القمر.

وقال مؤيد الدين الطغرائي، عفا الله عنه ورحمه:

وكأنما الشمس المنيرة إذ بدت، والبدر يجنح للمغيب وما غرب،
متحاربان: لذا مجنٌ صاغه من فضة، ولذا مجنٌ من ذهب.

ومن أحسن ما وصفت به في الطلوع والزوال والغروب قول أعرابي.

مخبأةٌ: أما إذا الليل جنها فتخفى وأما في النهار فتظهر.
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى دجى الليل وإنجاب الحجاب المستر
وألبس عرض الأفق لوناً كأنه على الأفق الغربي ثوب معصفر
عليها دروع الزعفران، يشوبه شعاع تلالا فهو أبيض أصفر:
ترى الظل يطوى حين تبدو وتارةً تراه إذا زالت على الأرض يُنشر.
فافنت قرونا، وهي في ذاك لم تزل تموت وتحيا كل يومٍ وتُنشر!

وقال آخر:

وبدا لنا ترسٌ من الذهب، الذي لم ينتزع من معدن بتعمل.
مرآة نور لم تُشن بصياغة كلا ولا جليت بكف الصيَقل.
تسمو إلى كبد السماء كأنها تبغي هناك دفاع أمرٍ مُعضِل.

حتى إذا بلغت إلى حيث انتهت وقفت كوقفة سائل عن منزل.

ومما وصفت به، وقد قابلت الغيم، قول ابن المعتز :

تظل الشمس ترمَقُنا بطرفٍ خفي لحظه من خلف ستر.
تحاول فتق غيمٍ وهو يأبى كعنينٍ يحاول نيل بكر.

وقال آخر :

وعين الشمس ترنو من بعيدٍ رنو البكر من خلف الستور.

وقال محمد بن رشيق:

فكأن الشمس بكرٌ حجبت وكأن الغيم سترٌ قد ستر.

مما وصفت به على طريق الذم

فمن ذلك ما قاله عبد الملك بن عمير، وقد سئل عنها فقال: مظهرة للداء، مثقلة للهواء، مبلاة للثوب، جالبة للهب. وقال آخر: الشمس تشحب اللون، وتغير العرق، وتُرخى البدن، وتثير المرة. إذا احتجمت فيها، أمرضتك؛ وإن أطلت النوم فيها، أفَلجتك؛ وإن قربت منها، صرت زنجياً، وإن بعدت عنها، صرت صقلياً .

وقال ابن سينا الملك:

لا كانت الشمس! فكم أصدأت صفحةَ خدً كالحسام الصقيل!
وكم وكم صدت بوادي الكرى طيف خيالٍ جاءني عن خليل!
وأعدمتني من نجوم الدجى ومنه روضاً بين ظلً ظليل!
تكذب في الوعد؛ وبرهانه أن سراب القفر منها سليل.
وهي إذا أبصرها مبصرٌ حديد طرفٍ، راح عنها كليل!
ياعلة المهموم، يا جلدة ال محموم، يا زفرة صبٍّ نحيل!
يا قرحة المشرق عند الضحى، وسلحة المغرب عند الأصيل!
أنت عجوزٌ، لم تبرجت لي، وقد بدا منك لعاب يسيل؟

وقال التيفاشي، عفا الله تعالى عنه ورحمه:

في خلقه الشمس وأخلاقها شتى عيوبٌ ستة تذكر .
رمداء، عمشاء، إذا أصبحت، عمياء عند الليل، لا تبصر.
ويغتدى البدر لها كاسفاً وجرمها من جرمه أكبر .
حرورها في القيظ لا تتقى ودفؤها في القر مستحقر.
وخلقها خلق المليك الذي ينكث في العهد ولا يصبر.
ليست بحسناء. وما حسن من يحسر عنه اللحظ يبصر؟

وقال أبو الطيب المتنبي:

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم.
وكان حالهما في الحكم واحدةً لو اختصمنا من الدنيا إلى حكم.

ما قيل في الكسوف

روى أن الشمس كسفت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافق ذلك موت إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الناس: إنما كسفت الشمس لأجله فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله

تعالى يخوف بهما عباده، وإنهما لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم ذلك، فادعوا الله وكبروا وصلوا حتى يكشف ما بكم.
وقال محمد بن هانئ في الكسوف.

هي الحوادث لا تبقى ولا تذر! ما للبرية من محتومها وزرُ!
لو كان ينجي علوٌّ من بوائقها لم تكسف الشمس بل لم يخسف القمر!

أسماء الشمس اللغوية
وللشمس أسماء نطقت بها العرب. فمنها: ذكاء، والجارية، والجونة، والغزالة، واللاهة، والضحى، والضح، ويوح " بالياء المثناة والباء الموحدة"، والشرق، وحناذِ، والعين، والمؤوبة، والسراج.

عباد الشمس
قال الشهر ستاني في كتابة المترجم بالملل والنحل : إن عبدة الشمس طائفةٌ من الهنود يسمون الديبكينية أي عباد الشمس؛ ومذهبهم مذهب الصابئة. وتوجههم إلى الهياكل السماوية دون قصر الإلهية والربوبية عليها. ويزعمون أن الشمس ملك من الملائكة، وأن لها نفساً وعقلاً، ومنها نور الكواكب، وضياء العالم، وتكون الموجودات السفلية. وهي ملك يستحق التعظيم، والسجود، والتبخير، والدعاء. ومن سنتهم أنهم اتخذوا لها صنماً بيده جوهرة على لون النار. وللصنم بيت خاص بنوه باسمه ووقفوا عليه ضياعاً، وله سدنة وقوام. فتأتي هذه الطائفة إلى البيت، ويصلون فيه ثلاث كرات. ويأتي أصحاب العلل والأمراض فيصومون له، ويصلون، ويدعون، ويستشفون به.

ما قيل في القمر
"وهو النير الثاني"
ذهب وهب بن منبه أن القمر موضوع على عجلة في فلك، والفلك يدور بأمر الله تعالى إلى ناحية المغرب، والعجلة يجرها ثلمائة وستون ملكاً إلى ناحية المشرق؛ وتدوير العجلة من تدرير الفلك الأعظم؛ وتدوير فلك القمر من تدوير العجلة.
ويقال: إن القمر كان كالشمس في الضياء. فلم يكن يعرف الليل من النهار، فأمر الله تعالى جبريل أن يمر عليه بجناحه، فمر عليه، فمحاه، فهو ما ترى فيه من السواد.
وبهذا القول فسر قوله تعالى "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة".
قالوا: ولا يسمى قمرا إلا بعد مضى ثلاث ليال من استهلاله. والأقمر هو الأبيض.

ما قيل في القمر

"من استهلاله إلى انقضاء الشهر وأسماء لياليه"
قالوا: وللقمر من أول الشهر إلى آخره خمس حالات؛ ولياليه عشرة أسماء أما حالاته الخمس:
فالأولى: الهلالية، وهي خروجه من تحت شعاع الشمس وظهوره في الغرب في أول الشهر.
الثانية: أن يفضل فيه النور على الظلمة، وذلك في الليلة السابعة من الشهر.
الثالثة: الاستقبال، وهو كونه في البرج السابع من بروج الشمس، ويسمى الامتلاء لامتلاء القمر فيه نورا، وذلك في الليلة الرابعة عشرة من الشهر، ويسمى القمر فيها بدراً لكماله، ويسمى بذلك لامتلائه، وقبل لمبادرته الشمس بالطلوع، وتسمى الليلة التي قبلها "وهي الثالثة عشرة" ليلة السواء لاستواء القمر فيها، وقيل: لاستواء ليلها ونهارها في الضياء، وهي ليلة التمام.
الرابعة: أن تفضل الظلمة فيه على النور، وذلك في الليلة الثانية والعشرين من الشهر.
الخامسة: المحاقية، وهي مدة استتاره بشعاع الشمس؛ ويسمى ذلك أيضاً سرارا، وذلك في الليلة التاسعة والعشرين، ويمكن أن يغيب ثلاث ليال لا يرى ويهل في اليوم الرابع، ويسمى حينئذ قمرا لا هلالاً؛ والشمس تعطيه من نورها كل ليلة ما يستضئ به نصف سبع قرصه حتى يكمل، ثم يسلبه من الليلة الخامسة عشرة، في كل ليلة نصف سبع قرصه حتى لا يبقى فيه نور فيستتر.
وأما أسماء لياليه، فإنه يقال لأول ثلاثة منها غرر، والثانية شهب، والثالثة زهر، والرابعة بهر، والخامسة بيض، والسادسة درع، والسابعة حنادس، والثامنة ظلم، والتاسعة دآدٍ، والعاشرة ليلتان منها محاق وليلة سرار؛ ويسمون الليلة الثامنة والعشرون الدعجاء، والليلة التاسعة والعشرين الدهماء، والليلة الموفية ثلاثين الليلاء، ويسمونها ليلة البراء لتبرى القمر من الشمس.

أسماء القمر اللغوية
وللقمر أسماء نطقت بها العرب. فمنها: القمر، والباهر، البدر، والطوس، والجلم، والغاسق، والوباض، والزبرقان، والمنشق، والواضح، والباحور، والأبرص، والزمهرير. ومنه قول الله سبحانه وتعالى: "لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً" وقول بعض العرب.
وليلةٍ ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما ظهر
ومن أسمائه: السمنار، والساهور.
والفخت ضوءه، والأخذ منزلته. وكذلك الوكس، وهي المنزلة التي يكسف فيها. والهالة دارته.
ما يتمثل به مما فيه ذكر القمر

يقال في أمثالهم:
أضيع من قمر الشتاء! قيل لأنه لا يجلس فيه.
إن يبغ عليك قومك، لا يبغ عليك القمر.
ويقال: أضوأ من القمر؛ وأتم من البدر.
ومن أنصاف الأبيات:
أريها السها وتريني القمر لا تخرج الأقمار من هالاتها
هكذا البدر في الظلام يوافي كذاك كسوف البدر عند تمامه
ومن الأبيات قول الطائي:
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيكون بدرا كاملا.
وقال ابن أبي البغل، والبيت الثاني لابن بحر:
المرء مثل هلال حين تبصره يبدو ضعيفاً ضئيلاً ثم يتسق.
"يزداد حتى إذا ما تم أعقبه كر الجديدين نقصاً ثم ينمحق".
وقال أبو الفرج الببغا:
ستخلص من السرار وأيما هلالٌ توارى في السرار فما خلص!
ما قيل في وصفه وتشبيهه
من ذلك قول عبد الله بن المعتز في الهلال:
وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلته حموله من عنبر!
وقول عبد الجبار بن حمديس الصقلي:
ورب صُبحٍ رقبناه، وقد طلعت بقية البدر في أولى بشائره!
كأنما أدهم الإظلام حين نجا من أشهب الصبح، ألقى نعل حافره!
وقال آخر:
قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد!
يتلو الثريا كفاغرٍ شرهٍ يفتح فاه لأكل عنقود!
وقال أبو الهلال العسكري:
في هلالٍ كأنه حية الرم ل أصابت على اليفاع مقيلا.
بات في معصم الظلام سوراً وعلى مفرق الدجى إكليلا.
وقال آخر:
والجو صافٍ والهلال مُشنف بالزهرة الزهراء نحو المغرب.
كصحيفةٍ زرقاء فيها نقطةٌ من فضة من تحت نون مذهب.
وقال آخر:
قلت لما دنت لمغربها الشم ش ولاح الهلال للنظار:
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا را فأعطاه الرهن نصف سوار
وقال أبو العلاء المعري:
ولاح هلالٌ مثل نونٍ أجادها بذوب النضار الكاتب ابن هلال.
وقال آخر:
وكأن الهلال نون لجينٍ غرفت في صحيفةٍ زرقاء.
وقال أبو عاصم البصري من شعراء التيمة:
رأيت الهلال، وقد أحدقت نجوم الثريا لكي تسبقه.
فشبهته وهو في إثرها وبينهما الزهرة المشرقة،

بقوسٍ لرامٍ رمى طائراً فأتبع في إثره بندقه.

وقال آخر:

ولاح لنا الهلال كشطرِ طوقٍ على لباب زرقاءِ اللباسِ.

وقال الواوا الدمشقي رحمه الله:

وكأن الهلال تحت الثريا ملكٌ فوق رأسه إكليل!

وقال لإبراهيم بن محمد المراديّ، من شعراء الأنموذج، ملغزا فيه:

دع ذا! وقل للناس: ما طارقٌ، يطرقكم جهراً ولا يتقي؟
ليس له روحٌ على أنه يركب ظهر الأدهم الأبلق.
شيخ رأى آدم في عصرِه وهو إلى الآن نجدً نقي.
ومد وسط السجن مع قومه لا ينبرى من نهجة الضيق.
هذا ويمشي الأرض في ليلة أعجب به من موثقٍ مطلق.
فتارة ينزل تحت الثرى وتارةً وسط السما يرتقى.
وتارة يوجد في مغربٍ وتارةً يوجد في المشرق.
وتارة تحسبه سابحاً يسرى بشاطئ البحر البحر كالزورق.
وتارةً تحسبه وهو في أستاره والبعض منه بقي،
ذبابة من صارمٍ مرهفٍ بارزةً من جفنه المطبق.
يدنو إلى عرس لَه حسنها يختطف الأبصار بالرونق.
حتى إذاجامعها يرتدي بحلة سوداء كالمحرق.
وهو على عادته دائماً يجامع الأنثى ولا يتقي.
ثم يجوب القفر من أجلها مشتملاً في مطرف أزرق.
حتى إذا قابلها ثانياً تشكه بالرمح في المفرق.
وبعد ذا تلبسه حلةً يا حسنها في لونها المونق!
فجسمه من ذهبٍ جامدٍ وجلده صيغ من الزئبق.
وهو إذا أبصرته هكذا أملح من صاحبة القرطق.

وقال ابن المعتز:

نظرت في يوم لذةٍ عجبا وافى به للسعود مقدارُ.
يقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتارُ.
كصير في يروح منتقداً في كفه درهمً ودينارُ.

وقال عبد الله بن علي الكاتب:

كشف البدر وجهه لتمامٍ، فوجوه النجوم مستترات.
وكأن البدر التمام عروسٌ، وكأن النجوم مستنقبات.

مما قيل فيه على طريق الذم

حكى أن أعرابياً رأى رجلاً يرقب الهلال. فقال له: ما ترقب فيه، وفيه عيوب لو كانت في الحمار لرد بها؟ قال: وما هي؟ فقال: إنه يهدم العمر، ويقرب الأجل، ويحل الدين، ويقرض الكتان، ويشحب اللون، ويفسد اللحم، ويفضح الطارق، ويدل السارق. ومن عيوبه أن الإنسان إذا نام في ضوئه حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل، ويهيج عليه الزكام والصداع؛ وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة في ضوئه، تغبرت طعومها وروائحها.

وقال ابن الرومي:

رب عرضٍ منزهٍ عن قبيحٍ دنسته معرضات الهجاء.

لو أراد الأديب أن يهجو البد ر، رماه بالخطة الشنعاء.
قال: يا بدر أنت تغدر بالسا رى وتزرى بزروة الحسناء.
كلف في شحوب وجهك يحكى نكتا فوق وجنةٍ برضاءِ.
يعتريك المحاق ثم يخلي ك شبيه القلامة الحجناء.
ويليك النقصان في آخر الشه ر فيمحوك من أديم السماء.
فإذا البدر نيل بالهجو، هل يأ من ذو الفضل ألسن الشعراء؟
لا لأجل المديح، بل خيفة الهج و أخذنا جوائز الخلفاء!

هذا ما أمكن إيراده في القمر، فلنذكر خبر عباد القمر.

ذكر عباد القمر

قال الشهر ستانى: عباد القمر طائفة الهنود يسمون الحندر بكتية، أي عباد القمر. يزعمون أن القمر ملك من الملائكة يستحق التعظيم والعبادة، وإليه تدبير هذا العالم السفلي، ومنه نضج الأشياء المتكونة واتصالها إلى كمالها؛ وبزيادته ونقصانه تعرف الأزمان والساعات؛ وهو تلو الشمس وقرينها، ومنها نوره، وبالنظر إليها زيادته ونقصانه؛ ومن سنتهم أنهم اتخذوا صنما على عجلة تجره أربعة، وبيده جوهرة؛ ومن دينهم أن يسجدوا له ويعبدوه، وأن يصوموا النصف من كل شهر، ولا يفطروا حتى يطلع القمر، ثم يأتون الصنم بالطعام والشراب واللبن، ثم يرعبون إليه وينظرون إلى القمر، ويسألونه حوائجهم؛ فإذا استهل الشهر علوا السطوح، وأوقدوا الدخن، ودعوا عند رؤيته، ورغبوا إليه، ثم نزلوا عن السطوح إلى الطعام والشراب والفرح والسرور، ولم ينظروا إليه إلا على وجوه الحسنة. وفي نصف الشهر إذا فرغوا من الإفطار، وأخذوا في الرقص واللعب بالمعازف بين يدي الصنم والقمر.

ما قيل في الكواكب المتحيرة

والكواكب الخمسة الباقية من الكواكب السبعة تسمى المتحيرة. ثلاثة منها علوية تعلو أفلاكها فلك الشمس، وهي زحل، والمشتري، والمريخ، واثنان منها سفلية فلكهما تحت فلك الشمس، وهي الزهرة، وعطارد.

وسميت هذه الكواكب المتحيرة لأنها ترجع أحياناً عن سمت مسيرها بالحركة الشرقية، وتتبع الغربية، فهذا الارتداد فيها شبه التحير.

ذكر عباد الروحانيات

"وما احتجوا به في سبب عبادتهم لها"

وعباد الروحانيات هم الصابئة. يقال: صبأ الرجل إذا مال وزاغ. ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان. وكانت الصابئة تقول: إنا نحتاج في معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه، إلى متوسط؛ ولكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً. وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب؛ والجسماني بشر

مثلنا يأكل مما نأكل، ويشرب مما نشرب، ويماثلنا في الصورة والمادة.
قالوا: "ولئن أطعمتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون".
وقالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه، وهم الروحانيون المقدسون المطهرون، جوهرا وفعلا وحالة.
أما الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية، المبرؤون عن القوى الجسدانية، أي منزهون عن الحركات المكانية، والتغيرات الزمانية، قد جبلوا على الطهارة، وفطروا على التقديس والتسبيح "لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون".
وإنما أرشدنا إلى هذا معلمنا الأول، غاديمون، وهرمس. فنحن نتقرب إليهم، ونتوكل عليهم، وهم أربابنا، وآلهتنا، ووسائلنا، وشفعاؤنا عند رب الأرباب، وإله الآلهة. فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا من دنس الشهوات الطبيعية، ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية، حتى يحصل لنا مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات. فحينئذ نسأل حاجاتنا منهم، ونعرض أحوالنا عليهم، ونصبأ في جميع أمورنا إليهم. فيشفعون لنا إلى
خالقنا وخالقهم، ورازقنا ورازقهم. وهذه التطهير والتهذيب ليس إلا باكتسابنا، ورياضنا، وفطامنا لأنفسنا عن دنيات الشهوات، باستمداد من جهة الروحانيات؛ والاستمداد هو التضرع والابتهال. بالدعوات، وإقامة الصلوات، وبذل الزكوات، والصيام عن المطعومات والمشروبات، وتقريب القرابين والذبائح، وتنجير البخورات، وتعزيم العزائم. فيحصل لنفوسنا استعداد أو استمداد من غير واسطة، بل يكون حكمنا وحكم من يدعى الوحي واحدا.
قالوا: والأنبياء أمثالنا في النوع، وأشكالنا في الصورة، ومشاركونا في المادة. يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب، ويساهموننا في الصورة. أناس بشر مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم، وبأية مزية لهم لزم مشايعتهم؟ "ولئن أطعمتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون".
قالوا: وما الفعل، فالروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع، والإيجاد، وتصريف الأمور من حال إلى حال، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال، يستمدون القوة من الحضرة القدسية، ويفيضون على الموجودات السفلية. فمنها مدبرات الكواكب السبعة السّيارة في أفلاكها، وهي هياكلها. فلكل روحاني هيكل، ولكل هيكل فلك. ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل الذي اختص به نسبة الروح إلى الجسد. فهو ربه ومديره ومدبره.
وكانوا يسمون الهياكل أربابا "وربما يسمونها اباء"، والعناصر أمهات. ففعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر، فيحصل من ذلك

تركيبات وامثراجات في المركبات فتتبعها قوى جسمانية، وتركب عليها نفوس روحانية، مثل أنواع النبات والحيوان. ثم قد تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحاني كلى، وقد تكون جزئية صادرة عن روحاني جزئي. فمع حنس المطر ملك، ومع كل قطرة ملك.

ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة في الجو مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح؛ وما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب؛ وما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب وقوس قزح وذوات الأذناب والهالة والمجرة؛ وما يحدث في الأرض من الزلال والمياه والأنجرة إلى غير ذلك.

ومنها متوسطات القوى السارية في جميع الموجودات، ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات، حتى لا ترى موجوداً ما خالياً عن قوة وهداية، إذا كان قابلاً لهما.

قالوا: وأما الحالة، فأحول الروحانيات من الروح، والريحان، والنعمة، واللذة، والراحة، والبهجة، والسرور في جوار رب العالمين، كيف تخفى؟ ثم طعامهم وشرابهم والتسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد؛ وأنسهم بذكر الله وطاعته، فمن قائم وراكع وساجد، ومن قاعد لا يريد تبدل حالته لما هو فيه من النعمة واللذة، ومن خاشع بصره لا يرفع، ومن ناظر لا يغمض، ومن ساكن لا يتحرك، ومتحرك لا يسكن، وكروبي في عالم القبض، وروحاني في عالم البسط "لا يعصون الله ما أمرهم".

وقد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاصلة بين الروحاني المحض والبشرية النبوية، ليس هذا موضع إيرادها.

فلنذكر إن شاء الله تعالى بيوت الهياكل، تلو ما ذكرناه من عباد الروحانيات ومحتجاتهم!

بيوت الهياكل

"وأماكنها ونسبتها إلى الكواكب"

قالوا: ثم لم تقتصر على الصابئة على التقرب إلى الروحانيات بأعيانها، والتلقى بذواتها حتى اتخذوا أصناماً على هيئة الكواكب السبعة، وجعلوا لها بيوتاً، وسموا البيوت بالهياكل، وجعلوا الهياكل الأفلاك للكواكب. وعظموا هذه الأصنام التي صنعوها، وزعموا أنهم إذا عظموها تحركت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون.

وحكى المسعودي في كتابه المترجم بمروج الذهب ومعادن الجوهر أن هذه الطائفة تزعم أن البيت الحرام هيكل زحل، وإنما طال بقاء هذا البيت على مرور الدهور، معظماً في سائر العصور، لأن زحل تولاه: إذ من شأنه الثبوت.

ومن البيوت المشهورة:

بيت على رأس جبل أصفهان، ويسمى مارس، ثم اتخذه بعض ملوك المجوس بيت نار؛ وبيت ببلاد الهند، وبيت ببلخ، بناه منو

شهر على اسم القمر، وكان الموكل بسدانته يسمونه برمك، وإليه تنسب البرامكة؛ وبيت غمدان باليمن، بناه الضحاك على اسم الزهرة؛ وبيت بفرغانة، على اسم الشمس، يعرف بكاوسان، بناه كاوس أحد ملوك الفرس، وخربه المعتضد بالله؛ وبيت ببلاد الصين، بناه ولد عامور بن شوبل بن يافث، وقيل بناه ملوك الترك.

وحكى غير المسعودي أن البيت الأول الكعبة. ويذكرون أن إدريس عليه السلام أوصى به، وأوصى أن يكون الحج إليه وهو عندهم بيت زحل؛ والبيت الثاني وهو بيت المريخ، يزعمون أنه كان بصور من الساحل الشامي؛ والبيت الثالث وهو بيت المشتري، كان بدمشق بناه جيرون بن سعد بن عاد، وموضعه الآن الجامع الأموي؛ والبيت الرابع وهو بيت الشمس بمصر، ويسمى عين شمس، وآثاره باقية إلى وقتنا هذا؛ والبيت الخامس هو بيت الزهرة، كان بمنبج وخرب، والبيت السادس بيت عطارد، وكان بصيدا من الساحل الشامي وخرب؛ والبيت السابع وهو بيت القمر، كان بحران؛ وهو بيت الصابئة الأعظم.

الباب الخامس من القسم الأول من الفن الأول

الكواكب الثابتة

ذهب بعض من تكلم في ذلك أن هذه الكواكب معلقة في سماء الدنيا كالقناديل، وأنها مخلوقة من نور.

وقال آخرون: إنها معلقة بأيدي ملائكة. وفسر بهذا القول قوله تعالى "إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت". يقال انتثارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة.

وهذه الكواكب في سماء الدنيا بنص الكتاب العزيز، لقول الله عز وجل: ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين. وقال قتادة: خلق الله تعالى هذه النجوم لثلاثة: جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر. فمن تأول غير هذا فقد أخطأ.

قالوا: وإنما سميت بالثوابت، وإن كانت متحركة لأنها ثابتة الأبعاد على الأبد، لا يقرب أحدها من الآخر، ولا يبعد عنه، ولا يزيد، ولا ينقص، ولا تتغير عن جهاتها. لأنها تتحرك بحركتها الطبيعية حول قطبي العالم. ولهذا سميت ثابتة. وهي في فلك ثامن غير أفلاك الكواكب السبعة السيارة. ودليل ذلك أن للكواكب السبعة حركات أسرع من حركات هذه.

ما يتمثل به في ذكر الكواكب

يقال: أنأى من كوكب؛ أبعد من مناط النجم؛ أهدى من النجم .

ومن أنصاف الأبيات :

وأين نزيل الأرض عند الكواكب؟ وأين الثريا من يد المتناول؟

والكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

ومن الأبيات قول أبي تمام عفا الله عنه:

كالنجم إن سافرت كان مواكبا وإذا حططت الرحل كان جليسا.

وقال أبو نواس:

أين النجوم الثابتا ت من الأهلة والبدور؟

وقال آخر:

وكنا في اجتماع كالثريا، فصرنا فرقة كبنات نعش!

وقال آخر:

كالفرقدين إذا تأمل ناظرٌ، لم يعل موضع فرقد من فرقد.

وقال الوزير أبو الفتح البستى:

وللنجم من بعد الرجوع استقامةٌ وللشمس من بعد الغروب طلوع.

وقال جحظة:

مثل الذي يرجو البلو غ إلى الكواكب وهو مقعد.

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أيها المنكح الثريا سهيلاً، عمرك الله! كيف يلتقيان؟
هي شامية إذا ما استهلت، وسهيل إذا استهل يماني.

وقال آخر:

وكل أخ مفارقه أخوه، لعمر أبيك، إلا الفرقدان!

ذكر ما قيل في وصف الكواكب وتشبيهها

من ذلك ما قاله ابن حجاج في المجرة:

يا صاحبي استيقظا من رقدةٍ تزرى على عقل اللبيب الأكيس!
هذى المجرة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس!

وقال آخر:

وكان المجر جدول ماءٍ نور الأقحوان في جانبيه.

وقال المهذب بن الزبير فيها:

وترى المجرة والنجوم كأنها تسقى الرياض بجدولٍ ملآنِ.
لو لم يكن نهراً، لما عامت به أبداً نجوم الحوت والسرطانِ.

وقال أبو هلال العسكري:

تبدو المجرة منجراً ذوائبها كالماء ينساح أو كالأيم ينسابُ

وقال هشام بن إلياس في الجوزاء:

فكأنما جوزاؤه في غربها بيضاء سابحةٌ ببركة زئبقِ.
وكأنما أومت ثلاث أناملٍ منها تقول: إلى ثلاثٍ نلتقي!

وقال آخر:

وكأن الجوزاء لما استقلت وتدلت، سِرادقٌ ممدودُ.

وقال العلوي فيها أيضاً:

ها إنها الجوزاءُ في أفقها واهيةٌ ناعسةٌ تُسحبُ.
نطاقها واهٍ لدى أفقها ينسل منها كوكبٌ كوكبُ.

وقال ابن وكيع فيها:

قم فاسقني صافيةً تهتك جنح الغسقِ!
أما ترى الصبح بدا في ثوب ليلٍ خلقِ؟
أما ترى جوزاءه كأنها في الأفق،

منطقةٌ من ذهبٍ فوق قباءٍ أزرقِ؟

وقال كعب الغنوي:

وقد مالت الجوزاء حتى كأنها فساطيط ركب بالفلاة نُزُولُ.

وقال امرؤ القيس في الثريا:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصلِ.

وقال ابن الطثرية:

إذا ما الثريا في السماء كأنها جُمانٌ وهي من سلكه، فتبددا.

وقال المبرد:

إذا ما الثريا في السماء تعرضت يراها حِديدُ العينِ ستة أنجُم.

على كبد الجرباء وهي كأنها جبيرة دُرٍّ ركبت فوق معصم.

وقال عبد الله بن المعتز:

فناولنيها، والثريا كأنها جنى نرجس حيا الندامى بها الساقي.

وقال أيضاً

كأن الثريا في أواخر ليلها تفتح نورٍ أو لجام مفضض.

وقال السلامي، شاعر اليتيمة فيها:

فسمونا، والفجر يضحك في الشر ق إلينا مبشراً بالصباح.

والثريا كراية أو لجام أو بنانٍ أو طائرٍ أو وشَاح،

وكأن النجوم في يّدِ ساق يتهادى تهادى الأقداح.

وقال ابن المعتز:

ولاحت لساريها الثريا كأنها على الأفق الغربي قرطٌ مسَلسَلُ.

وقال أبونضلة:

وتأملت الثريا في طُلوُعٍ ومغيب.

فتخيرت لها التش بيه في المَعنى المُصيب.

وهي كأس في شروق وهي قرط في غرُوُب.

وقال آخر:

كأن الثريا هودج فوق ناقةٍ يسير بها حادٍ مع الليل مزعجُ،

وقد لمعت بين النجوم كأنها قوارير فيها زئبقٌ يترجرج.

وقال ابن سكرة الهاشمي:

ترى الثريا، والغرب يجذبها والبدر يهوى والفجر ينفجر.

كف عروسٍ لاحت خواتمها أو عقد درٍّ في البحر ينتثر.

وقال محمد بن حسن الحاتمي:

وخلت الثريا كف عذراء طفلةٍ مختمةٍ بالدرّ منها الأناملُ.

تخيلتها في الجو طرة جعبةٍ ملوكيةٍ لم تعتلقها جمائلُ.

كأن نبالاً ستة من لآلِئ يوافي بها في قبة الأفق نابل.

وقال أحمد بن إبراهيم الضبي، شاعر اليتيمة:

خلت الثريا إذ بدت طالعةً في الحندس:

مرسلةً من لؤلؤٍ أو باقةً من نَرجِس

وقال أبو العلاء المعري في سهيل:

وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب المحب في الخفقان.

مستبداً كأنه الفارس المع لم يبدو معارض الفرسان.

وقال عبد الله بن المعتز:

وقد لاح للساري سهيلٌ كأنه على كل نجمٍ في السماء رقيبُ!

وقال الشريف بن طباطبا:

وسهيل كأنه قلب صب فاجأته بالخوف عين الرقيب.

وقال أبو عبادة البحتري:

كأن سهيلاً شخص ظمآن جانحٌ من الليل في نهرٍ من الماء يَكرَع.

وقال ابن طباطبا:

كأن سهيلاً، والنجوم أمامه يُعارِضُها، راعٍ أمام قطيع.

وقال الشريف الرضي في الفرقدين:

وهبت لضوء الفرقدين نواظري إلى أن بدا ضوءٌ من الفجر ساطعُ.

كأنهما إلفان قال كلاهما لشخص أخيه: قل فإني سامعُ!

وقال آخر:

قلت للفرقدين والليل مرخٍ ستر ظلمائه على الآفاق:

ابقيا ما بقيتما سوف يرمى بين شخصيكما بسهم الفراق!

وقال القاضي التنوخيّ:

وأشقر الجو قد لاجت كواكبه فيه كدرٍّ على الياقوت منثور.

وقال القاضي الفاضل، عبد الرحيم من رسالة: سرنا، وروضة السماء فيها من الزهر زَهرَ، ومن المجرة نهرَ؛ والليل كالبنفسج تخلله من النجوم أقاحٌ، أو كالزنج شعله من الرمح جراح، والكواكب سائرات المواكب لا معرس لها دون الصباح؛ وسهيل كالظمآن تدلى إلى الأرض ليشرب، أو الكريم أنف من المُقام بدار الذل فتغرب، فكأنه قبَسَ تتلاعب به الرياح، أو زينة قدمها بين يدي الصباح؛ أو ناظر يُغصّه الغيظ ويفتحه، أو معنىً يغمضه الحسن ثم يشرحه؛ أو صديقٌ لجماعة الكواكب مغاضب، أو رقيبٌ على المواكب مواكب؛ أو فارسٌ يحمي الأعقاب، أو داع به إليها وقد شردت عن الأصحاب.

والجوزاء كالسرادق المضروب، أو الهودج المنصوب؛ أو الشجرة المنورة، أو الحبر المصورّة. والثريا قد هم عُنقودها أن يتدلى، وجيش الليل قد هم أن يتولىّ.

القسم الثاني من الفن الأول

وفيه أربع أبواب

الآثار العلوية

الباب الأول:

من القسم الثاني من الفن الأول

السحاب والثلج

سبب حدوثه

والسحاب من الآثار العلوية.

روى أبو الفرج بن الجوزي بإسناد يرفعه إلى عبيد ابن عمير أنه قال: يبعث الله ريحا فتَقم الأرض، ثم يبعث المُثيرة فتثير السحاب، وذلك أنها تحمل الماء فتمجه في السحاب، ثم يمريه فيدر كما تدر اللقحة.

وقد روى في الأثران أن الرياح أربع: ريح تقم؛ وريح تُثير، فتجعله كسفا؛ وريح تؤلف، فتجعله ركاماً؛ وريح تُمطر. وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن الله تعالى يرسل الرياح فتثير سحابا، وينزل عليه المطر فتتمخض به الريح كما تمخض النتوج بولدها. وروى عن عكرمة رضي الله عنه أنه قال: ينزل الله الماء من السماء السابعة فتقع القطرة على السحاب مثل البعير، والسحاب للمطر كالغربال ينزل منه بقدر. ولولا ذلك لأفسد ما على الأرض.

وقال الزمخشري في تفسيره: السحاب من السماء ينحدر، ومنها يأخذ ماءه لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر،ويؤيد ذلك قوله عز وجل "وينزل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَد".

ما قيل في ترتيب السحاب "وأسمائه اللغوية وأصنافه"

قال أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي في فقه اللغة، ينقله عن أئمتها:

أول ما ينشأ السحاب، فهو نشء. فإذا انسحب في الهواء، فهو السحابُ. فإذا تغيرت وتغممت له السماء، فهو الغَمَام. فإذا كان غيم ينشأ في عُرض السماء فلا تبصره، وإنما تسمع رعده، فهو العَقْر. فإذا أطل وأظل السماء، فهو العارضُ. فإذا كان ذا رعد وبرق، فهو الَعرَّاصُ. فإذا كانت السحابة قطعا صغارا متدانياً بعضها مع بعض، فهي النَّمرةُ. فإذا كانت متفرقة، فهي القَزَعُ. فإذا كانت قطعا متراكمة، فهي الكِرفِئ "واحدتها كِرْفئةَ". فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال، فهي قلعٌ، وكنهورٌ " واحدتها كنهورةٌ". فإذا كانت قطعا رقاقا، فهي الطخاريرُ "واحدتها طخرورٌ" فإذا كانت حولها قطع من السحاب، فهي مكللةٌ. فإذا كانت سوداء، فهي طخياءُ، ومتُطخِطخَة. فإذا رأيتها وحسبتها ماطرة، فهي مُخيلة. فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا، فهو المُكَفهِر. فإذا ارتفع ولم ينبسط، فهو النَّشاص. فإذا تقطع في أقطار السماء وتلبد بعضه فوق بعض، فهو القِردُ. فإذا ارتفع وحمل الماء وكثف وأطبق، فهو العَمَاء، والعَمَاية ، والطَّخاء، والطِّخاف، والطَّهاء.

فإذا اعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء، فهو الحبيُّ. فإذا عنّ، فهو العنان. فإذا أظل الأرض فهو الدَّجن. فإذا اسود وتراكب، فهو المُحمومي. فإذا تعلق سحاب دون السحاب، فهو الرَّبَاب. فإذا كان سحاب فوق سحاب، فهو الغفارةُ. فإذا تدلى ودنا من الأرض مثل هدب القطيفة، فهو الهيدبُ. فإذا كان ذا

ماء كثير، فهو القنيف. فإذا كان أبيض، فهو المزن، والصَّبير. فإذا كان لرعده صوُت، فهو الهَزيم. فإذا أشد صوت رعده، فهو الأجشُّ. فإذا كان بارداً وليس فيه ماءٌ، فهو الصُّراد. فإذا كان ذا صوت شديد، فهو الصَّيّب. فإذا أهرق ماءه، فهو الجهام "وقيل بل الجَهاَم الذي لا ماء فيه".

ما قيل في ترتيب المطر
قال الثعالبي رحمه الله: أخف المطر وأضعفه الطل، ثم الرذاذ،ثم البغش والدث ومثله الرك، ثم الرهمة. ويقال أيضاً: أوّله رشّ وطشّ، ثم طلٌّ ورذاذ، ثم نضح ونضخ، وهو قطر بين قطرين، ثم هطل وتهتان، ثم وابل وجود. ما قيل فيفعل السحاب والمطر
يقال إذا أتت السماء بالمطر اليسير الخفيف: حفشت، وحشكت. فإذا استمر قطرها، قيل: هطلت، وهتنت.
فإذا صبت الماء، قيل:همعت، وهضبت. فإذا ارتفع صوت وقعها، قيل: انهلت واستهلت. فإذا سال المطر بكثرة، قيل: انسكب، وانبعق. فإذا سال يركب بعضه بعضاً، قيل: اثعنجر، واثعنجج. فإذا دام أياماً لا يقلع، قيل: أثجم، وأغبط، وأدجن. فإذا أقلع، قيل أنجم، وأفصم، وأفصى.

أسماء أمطار الأزمنة
قالت العرب: أول ما يبدأ المطر في إقبال الشتاء، فاسمه الخريف، ثم يليه الوسمى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم. وقيل المطر الأول هو الوسمى، ثم يليه الولى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم.
أسماء المطر اللغوية.
قال الثعالبي: إذا أحيا الأرض بعد موتها فهو الحيا. فإذا جاء عقيب المحل أو عند الحاجة إليه، فهو الغيث. فإذا دام مع سكون، فهو الديمة. والضرب فوق ذلك قليلا، والهطل فوقه. فإذا زاد، فهو الهتلان، والهتان، والتهتان.
فإذا كان القطر صغارا كأنه شذر، فهو القطقط. فإذا كانت مطرة ضعيفة، فهي الرهمة. فإذا كانت ليست بالكثيرة، فهي الغيبة، والحفشة، والحشكة. فإذا كانت ضعيفة يسيرة، فهي الذهاب، والهميمة. فإذا كان المطر مستمرا، فهو الودق. فإذا كان ضخم القطر شديد الوقع، فهو الوابل. فإذا انبعق بالماء، فهو البعاق. فإذا كان يروي كل شيءٍ، فهو الجود. فإذا كان عاماً، فهو الجدا. فإذا دام أياما لا يقلع، فهو العين. فإذا كان مسترسلاً سائلاً، فهو المرُثعن. فإذا كان كثير القطر، فهو الغدق. فإذا كان شديد الوقع كثير الصوب، فهو السحيفة.
فإذا كان شديداً كثيراً، فهو العز، والعباب. فإذا جرف ما مر به، فهو السحيقة. فإذا قشرت وجه الأرض، فهي الساحية. فإذا أثرت في الأرض من شدة وقعها، فهي الحريصة. فإذا أصابت

القطعة من الأرض وأخطأت الأخرى، فهي النفضة. فإذا جاءت المطرة لما يأتي بعدها، فهي الرصدة، والعهاد نحوٌ منها. فإذا أتى المطر بعد المطر، فهو الولى. فإذا رجع وتكرر، فهو الرجُع. فإذا تتابع، فهو اليعلولُ. فإذا جاءت المطرة دفعات، فهي الشآبيب. ما يتمثل به في ذكر المطر يقال: أبرد من غب المطر. أرق من دمع الغمام. أسرع من السيل إلى الحدور. أطغى من السيل. أغشم من السيل. أمضى من السيل. يذهب يوم الغيم ولا يشعر به. قد بلغ السيل الزبى. اضطره السيل إلى معطشه. أرينها نمره، أريكها مطره. سبق سيله مطره. قبل السحاب أصابني الوكف.

ومن أنصاف الأبيات

هل يرتجى مطرٌ بغير سحاب وأول الغيث طل ثم ينسكبُ

سحابة صيفٍ عن قريبٍ تقشع فدر كما در السحاب على الرعدِ

أسرع السحب في المسير الجهام ومن يسد طريق العارض الهطل؟

سحابٌ عداني فيضه وهو صيب يحسب الممطور أن كل مطر سال به السيل وما يدري بهِ

ومن الأبيات قول الطائي

وكذا السحائب، قلما تدعو إلى معروفها الرواد ما لم تُبرِق.

وقال البحتري عفى عنه:

واعلم بأن الغيث ليس بنافعٍ ما لم يكن للناس في إبانِهِ.

وقال أبو الطيب:

ليت الغمام الذي عندي صواعِقُهُ يزيلهنَّ إلى من عندهُ الديم!

وقال كثير:

كما أبرقت يوما عطاشاً غمامةٌ. فلما رجوها أقشعت وتجلت.

وقال آخر:

أنا في ذمة السحاب وأظما! إن هذا لوصمة في السحاب!

وقال آخر:

والله ينشي سحاباً تطمئن به النف وس من قبل بل الأرض بالمطر.

وصف السحاب والمطر

قال أبو تمام الطائي:

سحابة صادقة الأنواء تجر أهداباً على البطحاء.

تجمع بين الضحك والبكاء: بدت بنارٍ وثنت بماءِ.

وقال أبو عبادة البحتري عفا الله تعالى عنه:

ذات ارتجاس بحنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد،

مسفوحة الدمع بغير وجد لها نسيمٌ كنسيم الورد،

ورنة مثل زئير الأسد ولمع برقٍ كسيوف الهند.

جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتثار العقد.

وراحت الأرض بعيش رغد من وشي أنوار الثرى في برد.
كأنما غدرانها في الوهد يلعبن ترحاباً بها بالرند.
وقال أبو الحسن علي بن القاسم القاشاني من شعراء اليتيمة عفا عنه:
إذا الغيوم أرجحن باسقها وحف أرجاءها بوارقها،
وعبيت للثرى كتائبها وانتصبت وسطها عقائقها،
وجلجل الرعد بينها فحكى خفق طبولٍ ألح خافقها،
وابتسمت فرحةً لوامعها واختلفت عبرةً حمالقها،
وقيل: طوبى لبلدةٍ نتجت بجو أكنافها بوارقها.
أية نعماء لا تحل بها؟ وأي بأساء لا تفارقها؟
وقال القاضي التنوخي:
سحاب أتى كالأمن بعد تخوف له في الثرى فعل الشفاء بمندف.
أكب على الآفاق إكباب مطرقٍ يفكر أو كالنادم المتلهف.
ومد جناحيه على الأرض جانحاً فراح عليها كالغراب المرفرف.
غدا البر بحراً زخراً وانثنى الضحى بظلمته في ثوب ليلٍ مسجف.
فعبس عن برقٍ به متبسم عبوس بخيلٍ فيه تبسم معتف.
تحاول منه الشمس في الجو مخرجاً كما حاول المغلوب تجريد مرهف.
وقال ابن الرومي:
سحائب قيست بالبلاد فألفيت غطاءً على أغوارها ونجودها.
حدتها النعامى مقبلاتٍ فأقبلت تهادى رويداً سيلها كركودها.
وقال أبو هلال العسكري:
وبرقٍ سرى، والليل يمحى سواده فقلت: سوارٌ في معاصم أسمرا!
وقد سد عرض الأفق غيم تخاله يزرُّ على الدنيا قميصاً معنبرا.
تهادى على أيدي الحبائب والصبا كخرقٍ من الفتيان نازع مسكرا.
تخال به مسكاً وبالقطر لؤلؤاً وبالروض ياقوتاً وبالوحل عنبرا.
سواد غمام يبعث الماء أبيضاً وغرةٍ أرض تنبت الزهر أصفرا.
أتتك به أنفاس ريح مريضةٍ كمفظعة رعناء تستاق عسكرا.
فألقى على الغدران درعاً مسرداً وأهدى إلى القيعان برداً محبرا.
تخال الحيا في الجو درا منظماً وفي وجنات الروض درا منثرا.
وأقبل نشر الأرض في نفس الصبا فبات به ثوب الهواء معطرا.

إذا ما دعت فيه الرعود فأسمعت أجاب حداةً واستهل فأغزرا.
ويبكي إذا ما أضحك البرق سنهُ فيجعل نار البرق ماءً مفجرا.
كأن به رؤد الشباب خريدةً قد اتخذت ثنى السحابة معجرا.
فثغر يرينا من بعيد تبلجاً ودمعٌ يرينا من بعيدٍ تحدُّرا.
وقال مؤيد الدين الطغرائي:
ساريةٌ ذات عبوسٍ برقها يضحك والأجفان منها تهمل.
كحلةٍ دكناء في حاشية فيها طراز مذهب مسلسل.
إذا دنت عشارها، صاح بها قاصف رعدٍ وحدتها الشمأل.
وقال عبد الله بن المعتز:
ومزنة جاد من أجفانها المطر: فالروض منتظمٌ والقطر منتثر.
ترى مواقعة في الأرض لائحةً مثل الدراهم تبدو ثم تستر.
وقال أيضاً:
ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكر الرياض للأمطار؟
وكان الربيع يجلو عروسا وكأنا من قطره في نثار!
وقال ابن عوف الكاتب في إطباق الغيم وقربه:
في مزنة أطبقت فكادت تصافح الترب بالغمام.
وقال آخر:
تبسمت الريح، ريح الجنو ب فيها هويً غالباً وادكار.
وساقت سحاباً كمثل الجبال إذا البرق أومض فيه، أنارا.
إذا الرعد جلجل في جانبي ه روى النبات وأروى الصحاري.
تطالعنا الشمس من دونه طلاع فتاةٍ تخاف اشتهار ،
تخاف الرقيب على نفسها وتحذر من زوجها أن يغارا.
فتستر غرتها بالخما رطوراً، وطوراً تزيل الخمارا.
فلما رآه هبوب الجنو ب وانهمر الماء فيه انهمارا،
تبسمت الارض لما بكت عليها السماء دموعاً غزار!
وقال الأسعد بن بليطة من شعراء الذخيرة:
لو كنت شاهدنا عشية أمسنا، والمزن تبكينا بعيني مذنب،
والشمس قد مدت أديم شعاعها في الأرض تجنح غير أن لم تذهب،
خلت الرذاذ برادة من فضة قد غربلت من فوق نطعٍ مذهب!
وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من شعرائها:
راحت تذكر بالنسيم الرَّاحا وطفاء تكسر للجنوح جناحا.
أخفى مسالكها الظلام فأوقدت من برقها، كي تهتدي، مصباحا.
وكان صوت الرعد خلف سحابها حاد إذا ونت السحائب، صاحا.
جادت على التلعات فاكتست الربا ملّلاً أقام لها الربيع وشاحا.
وقال ابن برد الأصغر الأندلسي من شعرائها:
ومازلت أحسب فيه السحاب، ونار بوارقها تلتهب:

بخاتي توضع في سيرها وقد قرعت بسياط الذهب.

ومما ورد في وصفها نثرا
قال بعض الأندلسيين من رسالة: ثم أرسل الله الرياح من كنائنها، وأخرجها من خزائنها؛ فجرت ذيولها، وأجرت خيولها؛ خافقة بنودها، متلاحقة جنودها؛ فاثارت الغمام، وقادته بغير زمام؛ وأنشأت بحرية من السحاب، ذات أتراب وأصحاب؛ كثيراً عددها، غزيرا مددها، فبشرت بالقطر كل شائم، وانذرت بالورد كل حائم، والريح تنثهّا، والبرق يحثهُّا، كأنه قضيب من ذهب، أو لسان من لهب؛ وللسحاب من ضوء البرق هاد، ومن صوت الرعد حاد؛ والريح توسع بلحمتها سداها، وتسرع في حياكتها يداها. فلما التحم فتقها، والتأم رتقها؛ وامتدت أشطانها، واتسعت أعطانها؛ وانفسحت أجنابها، وانسدلت أطنابها؛ وتهدل خملها، وتمخض حملها؛
ومدت على آفاق السماء نطاقها، وزرت على أعناق الجبال أطواقها، كأنها بناء على الجو مقبوب، أو طبقٌ على الأرض مكبوب؛ تمشي من الثقل هونا، وتستدعى من الريح عونا؛ ومخايلها تقوى، وعارضها أحوى. فلما أذن الله لها بالانحدار، وأنزل منه الودق بمقدار، أرسلت الريح خيوط القطر من رود السحائب، وأسبلتها إسبال الذوائب، فدرت من خلف مصرور، ونثرت طلها نثر الدرور. ثم انخرق جيبها وانبثق سيبها؛ وصار الخيط حبلاً،والطل وبلا. فالسحاب يتعلق، والبرق يتألق، والرعد يرتجس، والقطر ينبجس، والنقط تترامى طباقاً، وتتبارى اتساقا، فيردف السابق المصلي، ويتصل التابع بالمولى، كما يقع من المنخل البر، وينتثر من النظام الدر، فجيوب السماء تسقطه، وأكف الغدران تلقطه؛ والأرض قد فتحت أفواها، وجرعت أمواها، حتى أخذت ريها من المطر، وبلغت منه غاية الوطر، خفى من الرعد تسبيحه، وطفئت من البرق مصابيحه، وحسرت الماء نقابها،
وولت المطر أعقابها؛ وحكت في ردها طلق السابق، وهرب الآبق.
ومن رسالة لمحمد بن شرف القيرواني:
برئ عليل البرى، وأثرى فقير الثرى، وتاريخ ذلك انصرام ناجر، وقد بلغت القلوب الحناجر، محمارةٌ أحمرت لها خضرة السماء، واغبرت مرآة الماء، حتى انهل طالع وسمي، وتلاه تابع ولي، دنا فأسف، ووكف فما كفّ. فما فتئ مسكوباً قطره، محجوباً شمسه وبدره، وجليب عروس الشمس، معتذرة عن مغيبها بالأمس، فعندها مزق عن الدقعاء صحيح إهابها، واختزن در البر في أصداف ترابها. فما مرت أيام إلا والقيعان مسندسه، والآكام مطوسه.
ومن رسالة لأبي القاسم، محمد بن عبد الله بن أبي الجد في وصف مطر بعد قحط: قال: لله تعالى في عباده أسرار، لا

تدركها الأفكار، وأحكام، لا تنالها الأوهام. تختلف والعدل متفق، وتفترق والفضل مجتمع متسق. ففي منحها نفائس المأمول، وفي محنها مداوس العقول. وفي أثناء فوائدها حدائق الإنعام رائقه، وبين أرجاء سرائرها بوارق الإعذار والإنذار خافقه. وربما تفتحت كمائم النوائب، عن زهرات المواهب. وانسكبت غمائم الرزايا، بنفحات العطايا. وصدع ليل اليأس صبح الرجاء، وخلع عامل البأس وإلى الرخاء. ذلك تقدير اللطيف الخبير، وتدبير العزيز القدير!
ولما ساءت بتثبط الغيث الظنون، وانقبض من تبسط الشك اليقين، واسترابت حياض الوهاد، بعهود العهاد، وتأهبت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد النقع المثار، وتعطلت أجياد الأنوار، من حلى الديمة المدرار، أرسل الله بين يدي رحمته ريحا بليلة الجناح، مخيلة النجاح، سريعة الإلقاح، فنظمت عقود السحاب، نظم السخاب، وأحكمت برود الغمام، رائقة الأعلام. وحين ضربت تلك المخيلة في الأفق قبابها، ومدت على الأرض أطنابها، لم تلبث أن انهتك رواقها، وانبتك وشيكاً نطاقها، وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق، غداة الفراق، وتحكي بنان الكرام، عند أريحية المدام، فاستغربت الرياض ضحكا ببكائها، واهتز رفات النبات طربا لتغريد مكائها، واكتسب ظهور الأرض من بيض إنائها، خضر ملائها. فكأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بساطا مفوَّفا، وأهدت إليها من زخارف بزها ومطارف وشيها ألطافا وتحفا. وخيل للعيون أن زواهر النجوم، قد طلعت من مواقع التخوم، ومباسم الحسان، قد وصلت بافتزاز الغيظان. فيا برد موقعها على القلوب والأكباد! ويا خلوص ريها إلى غلل النفوس الصّواد! كأنما استعارت أنفاس الأحباب، أو ترشفت شنب الثنايا العذاب، أو تحملت ماء الوصال، إلى نار البلبال. أو سرت على أنداء الأسحار وريحان الآصال. لقد تبين للصنع الجليل، من خلال ديمها تنفس ونصول، وتمكن للشكر الجميل، ومن ظلال نعمها معرس ومقيل. فالحمد لله على ذلك ما انسكب قطر، وانصدع فجر؛ وتوقد قبس، وتردد نفس؛ وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمى، وصلة أسباب الحياة والحيا بعزته!
وقال الوزير أبو عمرو الباجي في مثل ذلك: إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل؛ ونعم يبسطها إذا شاء إنعاماً وترفيها، ويقبضها متى أراد إلهاماً وتنبيهاً؛ ويجعلها لقوم صلاحا وخيراً، ولآخرين فساداً وطيرا. "وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد".
وإنه كان من امتساك السقيا، وتوقف الحيا؛ ما ريع به الأمن واستطير له الساكن؛ ورجفت الأكباد فزعاً، وذهلت الألباب جزعاً؛ وأذكت ذكاء حرها، ومنعت السماء ردها؛ وكتست الأرض غبرة بعد خضرة، ولبست شحوبا بعد نضرة؛ وكادت برود الرياض

تطوى، ومدود نعم الله تزوى، ثم نشر الله تعالى رحمته، وبسط نعمته، وأتاح منته، وأزاح محنته.
فبعث الرياح لواقح، وأرسل الغمام سوافح؛ بماء يتدفق، ورواء غدق، من سماء طبق. استهل جفنها فدمع، وسمح دمعها فهمع، وصاب وبلها فنقع. فاستوفت الأرض رياً، واستكملت من نباتها أثاثاً وريا؛ فزينت الأرض مشهورة، وحلة الزهر منشورة، ومنه الرب موفوره، والقلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة أثر عبوسها؛ وأثار الجزع ممحوه، وسور الشكر متلوه؛ ونحن نستزيد الواهب نعمة التوفيق ونستهديه في قضاء الحقوق إلى سواء الطريق؛ ونستعيذ به من المنة أن تعود فتنه، والمنحة أن تصير محنه! والحمد لله رب العالمين!

مما وصف به الثلج والبرد
قال أبو الفتح كشاجم:
الثلج يسقط أم لجين يسبك، أم ذا حصى الكافور ظلَّ يفرك؟
راحت به الأرض الفضاء كأنها في كل ناحيةٍ بثغر تضحك!
شابت ذوائبها فبين ضحكها طرباً وعهدي بالمشيب ينسك!
وتردت الأشجار منه ملاءةً عما قليلٍ بالرياح تهتك!
وقال أيضاً
ثلجٌ وشمسٌ وصوب غاديةٍ فالأرض من كل جانب غُرَّه!
باتت وقيعانها زبر جدةٌ. فأصبحت قد تحولت دره!
كأنها والثلوج تضحكها تعار ممن أحبه ثغره!
شابت فسرت بذاك وابتهجت وكان عهدي بالشيب يستكره!
وقال الصاحب بن عباد:
أقبل الثلج في غلائل نورٍ تتهادى بلؤلؤ منثور!
فكأن السماء صاهرت الأر ض فصار النثار من كافور!
وقال النميري:
أهدى لنا بردا يلوح كأنه في الجو حَبَّ لآلئ لم يثقب،
أو ثغر حواء اللثات تبسمت عن واضح مثل الأقاحي أشنب!

الباب الثاني:

من القسم الثاني من الفن الأول

النيازك، والصواعق

والرعد، والبرق، وقوس قزح

(ا)فأما النيازك فهو ما يرى من الذوائب المتصلة بالشهب والكواكب.
روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لجماعة من الأنصار: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به؟ قالوا: يا رسول الله، كنا نقول إذا رأيناها يرمى بها: مات ملك، ولد مولود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك كذلك، ولكن الله تعالى كان إذا قضي في خلقه أمر اسمعه الملائكة

فيسبحون، فيسبح من تحتهم لتسبيحهم، فيسبح من تحت أولئك حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحون، ثم يقولون ألا تسألون من فوقكم مم يسبحون؛ فيقولون قضى الله في خلقه كذا وكذا، للأمر الذي كان. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيتحدثون به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف. ثم يأتون به الكهان، فيصيبون بعضا، ويخطئون بعضا. ثم أن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة، فلا كهانة اليوم. والشهب التي يقذف بها الشياطين غير النجوم الثوابت التي منها البروج والمنازل لقول الله تعالى "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين".

وقال بعض الشعراء:

وكوكبٍ نظر العفريت مسترقاً للسمع فانقض يذكى أثره لهبه

كفارس حل من تيهٍ عمامته وجرَّها كلها من خلفه عذبه

وكتب ابن الحرون إلى صديق له، وقد كثر انقضاض الكواكب، وذلك في أيام المتوكل على الله:

أما بعد. فإن الفلك قد تفرى عن شهبٍ ثواقب، كنيران الحباحب، متقدة كشرر الزنود، وشعل زبر الحديد، مازجها عرض حمرة البهرمان، وصفرة العقيان. فهي كأرسال جرادٍ منتشر، وهشيم ذرته ريح صرصر، في سرعة الكف، ووحي لحظ الطرف.

(ب)وأما الصواعق، فهي ما قاله الزمخشري في تفسيره:

الصاعقة قصفة في رعد ينقض معها شقة من نار.

وقالوا: إنها تنقدح من السحاب إذا أصطكت أجرامه. وهي نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء لا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود. على أنها متى سقطت على نخلة أحرقت عاليها .

وقال صاحب كتاب مناهج الفكر ومباهج العبر في كتابه: ومن عجيب شأنها أنها تحرق ما في الكيس، ولا تحرق الكيس؛ وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب فيه سال. قال: وهي إذا سقطت على جبل أو حجر كلسته ونفذته، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما لاقت من جوانبه. وربما عرض لها عند انطفائها في الأرض برد ويبس، فتكون منها إجرام حجرية أو حديدية، أو نحاسية. وربما طبعت الحديد سيوفاً لا يقوم لها شيء.

(ج)وأما الرعد وما قيل فيه. قال الله تبارك وتعالى: "ويسبح الرعد بحمده". قال المفسرون: الرعد ملك موكل بالسحاب، معه كر من حديد، يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله. فكلما خالف سحاب، صاح به فزجره فالذي يسمع هو صوت الملك.

وقال الزمخشري من تفسيره: الرعد الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك.

وأما صوت الرعد، تقول العرب: رعدت السماء.
فإذا ازداد صوتها، قيل: ارتجست. فإذا زاد، قيل: أرزمت، وقعقعت. فإذا بلغت النهاية، قيل: جلجلت، وهدهدت.
المثل
رب صلف تحت الراعدة ."للبخيل المتكبر".
(د)وأما البرق وما قيل فيه، فقد ذهب المفسرون لقول الله تعالى إلى إنه ضرب الملك الذي هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد. وروي عن مجاهد: إن الله عز وجل وكل بالسحاب ملكا. فالرعد قعقعة صوته، والبرق سوطه.
وأما ترتيبه في لمعانه
تقول العرب إذا برق كأنه يتبسم، وذلك بقدر ما يريك سواد الغيم من بياضه: انكل انكلالاً. فإذا بدا من السماء برقٌ يسير، قيل: أوشمت السماء. ومنه قيل:أوشمت النبت إذا أبصرت أوله. فإذا برق برقا ضعيفا، قيل: خفا. فإذا لمع لمعاً خفيفا، قيل: لمح، وأومض. فإذا تشقق، قيل: أنعق انعقاقًا. فإذا ملأ السماء وتكشف واضطرب، قيل: تبوج. فإذا كثر وتتابع، قيل: ارتعج. فإذا لمع وأطمع ثم عدل، قيل له: خلبٌ.
المثل: ليس في البرق اللامع مستمتعٌ.

وصف الرعد والبرق
قال أبو هلال العسكري، عفا الله عنه:
والرعد في أرجائه مترنم والبرق في حافاته متلهب.
كالبلق ترمح، والصوارم تنتضى والجو يبتسم، والأنامل تحسب
وقال آخر:
إذا ونت السحب الثقال وحثها من الرعد حاد ليس يبصر أكمهُ،
أحاديثه مستهولاتٌ وصوته إذا انخفضت أصواتهن مقهقه،
إذا صاح في آثارهن حسبته يجاور به من خلفه صاحبٌ له
وقال ابن الدقاق الأندلسي:
أرى بارقا بالأبلق الفرد يومض يذهب أكناف الدجى ويقضض.
كأن سليمى من أعاليه أشرفت تمد لنا كفا خضيبا وتقبض.
وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:
ويوم جرى برقه أشقرا يطارد من مزنه أشهبا:
ترى الأرض فيه وقد فضضت ووجه السماء وقد ذهبا!
وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي، شاعر الذخيرة:
ولما تجلى الليل والبرق لامعٌ كما سل زنجي حساماً من التبّر.
وبت سمير النجم وهو كأنه على معصم الدنيا جبائر من در.
وقال محمد بن عاصم، شاعر الخريدة عفا الله عنه:د

أضاء بوادي الأثل والليل مظلم بريق كحد السيف ضرجه الدم.
إذا البرقُ أجرى طرفه فصهيله إذا ما تفرى رعده المترنم.
فشبهته إذ لاح في غسق الدجى بأسنان زنجي بدت تتبسم.
وقال أيضاً:
والبرق يضحك كالحبيب وعنده رعدٌ يخشن كالرقيب مقالهُ!
وقال آخر:
أرقت لبرق غدا موهنا خفي كغمزك بالحاجب
كأن تألقه في السماء يدا كاتب أو يد حاسب.
وقال عبد الله بن المعتز، يشير إلى سحابة:
رأيت فيها برقها منذ بدت كمثل طرف العين أو قلبٍ يحب.
ثم حدت بها الصبا حتى بدا فيها إلى البرق كأمثال الشّهب.
تحسبه فيها إذا ما انصدعت أحشاؤها عنه شجاعاً يضطرب.
وتارةً تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب.
حتى إذا ما رفع اليوم الضّحى حسبته سلالاً من الذهب.
قوله شجاعا مأخوذ من قول دعبل
أرقت لبرقٍ آخر الليل منصب خفى كبطن الحية المتقلب.
وقال أيضا:
ما زلت أكلأ برقاً في جوانبه كطرفة العين تخبر ثم تختطف.
برق تجاسر من حفان لأُمِعه يقض اللبانَةَ من قلبي وينَصَرفُ.
وأما قوس قزح وما قيل فيه: قالوا: وإنما سمي لذلك لتلونه.
وكان ابن عباس رضي الله عنهما يكره أن يسميه قوس قزح، ويسميه قوس الله، ويقول: قُزَحُ اسم الشيطان.
وزعم القدماء في علة تلونه وتكونه، إنه إذا تكاثف جزء من الهواء بالبرد ثم أشرق عليه نور بعض الكواكب انصبغ ذلك الجزء، وانعطف منه الضوء إلى ما يليه من الهواء كالحمرة الصافية إذا طلعت عليه الشمس سطع نورها، وانعطف منه ألوان مختلفة إلى ما يقرب منها. وحمرته وصفرته من قبل الرطوبة واليبُس.
قالوا: وقياس ذلك النار، فإنها إذا كانت من حطب رطب، كان لونها أحمر كدراً، فإن كانت من حطب يابس، كان لونها أصفر صافيا.
وقال آخرون: القوس يحدث عن رطوبة الهواء وصقالته، حتى يمكن أن ترسم فيه دائرة الشمس كما ترسم الأشباح في المرايا، وتشتبك الأشعة بما يكون فيه البخار الرطب فيتولد، فيكون منها تلك الألوان. وإنما توجد دائرة على الناظر، لأن الشمس أبداً تكون في قفاها، ولذلك ترى في مقابلة الجهة التي تكون فيها الشمس، فترى في المغرب إذا كانت الشمس في المشرق، وترى في المشرق إذا كانت في المغرب. وزعم بعض القدماء إن أثر القوس غير حقيقي، وإنما هو تخييل لا وجود له في نفسه. وقال إن ادراكه على نحو إدراك صورة الإنسان في المرآة من غير أن تكون منطبعة على الحقيقة فيها

ولا قائمة بها. وذلك بحسب غلظ الحس الباصر وهو لا يرى إلا أن يكون وراء السحاب الصقيل، إذا ذاك يكون كالمرآة مؤدياً للبصر على نحو تأدية البلور، إذا جعل وراء شيء غير مشف. ولا يكون ذلك عن السحاب الصقيل وحده، كما لا يكون عن البلور وحده، ولا عن غير المشف وحده. والله أعلم.

وصف وتشبيه القوس

قال أبو الفرج الوأواء، عفا الله تعالى عنه و :

سقياً ليوم بدا قوس الغمام به والشمس طالعةٌ والبرق خلاسُ!

كأنه قوس رامٍ والبروق له رشق السهام وعين الشمس برجاس

وقال سعيد بن حميد القيرواني، رحمة الله عليه:

أما ترى القوس في الغمام وقد نمق فيه الهواء نورا؟

حكى الطواويس وهي جاعلةٌ أذنابها للمياه أستارا.

أخضر في أحمرٍ على يققٍ على وشاح السحاب قد دارا.

كأنما المزن وهي راهبةٌ شدت على الأفق منه زنارا.

وقال ظاهر الدين الحريري. شاعر الخريدة عفا الله عنه:

ألست ترى الجو مستعبراً يضاحكه برقه الخلب؟

وقد بات من قزح قوسه بعيدا وتحسبه يقرب؟

كطاقي عقيقٍ وفيروزج وبينهما آخر مذهبُ.

وقال سيف الدولة بن حمدان، من أبيات:

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً على الجود كنا والحواشي على الأرض.

يطرزها قوس السحاب بأصفر على أحمر في أخضر وسط مبيض.

كأذيال خودٍ أقبلت في غلائلٍ مصبغةٍ،والبعض أقصرُ من بعض.

وقال عبد المحسن الصوري، عفا الله تعالى عنه:

تأمل الجو ترى والياً قد ولى العهد على السحب!

سار، وقوس الله تاج له، ركضا من الشرق إلى الضرب!

الباب الثالث

من القسم الثاني من الفن الأول

الهواء

في أسطقس الهواء

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: الريح من روح الله تعالى، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب. فلا تسبوها، واسألوا الله خيرها؛ واستعيذوا بالله من شرها. أخرجه البيهقي في سننه.

وروى أبو الفرج بن الجوزي بإسناده إن الريح تنقسم إلى قسمين: رحمة وعذاب؛ وينقسم كل قسم إلى أربع أقسام.

ولكل قسم اسم، فأسماء أقسام قسم الرحمة: المبشرات، والنشر، والمرسلات، والرخاء. وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف، والقاصف، "وهما في البحر"، والعقيم، والصرصر "وهما في البر".
وقد جاء القرءان بكل هذه الأسماء.
ما قيل في حد الهواء
قال الشيخ الرئيس أبو على بن سينا في حدّه: الهواء حرم بسيط، طباعه أن يكون حاراً رطباً مشفا متحركاً إلى المكان الذي تحت كرة النار التي فوق كرة الأرض والماء. وقال إبقراط: إن تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس مرة إلى الغضب، ومرة إلى السكون، وإلى الهم والسرور، وغير ذلك. وإذا استوت حالات الهواء، استوت حالات الناس وأخلاقهم.
وقال: إن قوى النفوس تابعة لأمزجة الأبدان، وأمزجة الأبدان تابعة لتصرف الهواء، إذا برد مرة، وسخن مرة، خرج مرة الزرع نضيجا، ومرة غير نضيج، ومرة قليلا، ومرة كثيرا، ومرة حارا، ومرة باردا، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم. وإذا استوى واعتدل الهواء، خرج الزرع معتدلاً، فاعتدلت بذلك الصور والمزاجات. قال: والعلة في تشابه الترك، هو أنه لما استوى هواء بلادهم في البرد استوت صورهم وتشابهوا.
وقال: إن الرياح تقلب الحيوان حالاً إلى حال، وتصرفه من حر إلى برد، ومن يبس إلى رطوبة، ومن سرور إلى خزن؛ وإنها تغير ما في البيوت من أصناف المأكل كالتمر، والعسل، والسمن، والشراب، فتسخنها مرة، وتبردها أخرى، وتصلبها مرة، وتيبسها مرة. وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها؛ وإذا تغير الهواء، تغير بتغيره كل شيء.
وقال: أن الجنوب إذا هبت، أذابت الهواء وبردته، وسخنت البخار والأنهار فكل شيء في رطوبة تغير لونه وحالاته. وهي ترخى الأبدان والعصب، وتورث الكسل، وتحث ثقلاً في الأسماع، وغشاوة في الأبصار. وأما الشمال فإنها تصلب الأبدان، وتصحح الأدمغة، وتحسن اللون، وتصفي الحواس، وتقوي الشهوة والحركة، غير أنها تهيج السعال، ووجع الصدر.
وزعم بعض من تأخر في الإسلام من الحكماء: أن الجنوب إذا هبت بأرض العراق، تغير الورد، وتناثر الورق، وتشقق القنبيط، وسخن الماء، واسترخت الأبدان، وتكدر الهواء.
وزعم آخرون من القدماء: إن الهواء جسم رقيق متى تموج من المشرق إلى المغرب سمي ريح الصبا.
قيل: سميت ريح الصبا، لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها. والصبوة الميل. وجاء في بعض الآثار: ما بعث نبي إلا والصبا معه، وهي الريح التي سخرت لسليمان عليه السلام غدوها شهرا، أي من أول النهار إلى الزوال، ورواحها شهر، أي من الزوال إلى المغرب. كان يغدو من تدمر من بلاد الشام فيقيل في إصطخر من بلاد فارس، ويبيت بكابل من بلاد الهند.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور. وإذا تموج من الجنوب إلى الشمال، سمي ريح الجنوب، وهي الريح التي أهلك الله عز وجل بها عاداً وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تهالى في الفن الخامس من كتابنا هذا.
وإذا تموج من الشمال إلىالجنوب، سمي ريح الشمال. وهم يزعمون أن مبادئ الرياح شمالية أخذت إلى الجنوب، وغربية أخذت إلى المشرق للطف الهواء في هاتين الجهتين،. والعرب تحب الصبا لرقتها، ولأنها تجيء بالسحاب. والمطر فيها والخصب، وهي عندهم اليمانية.

أسماء الرياح اللغوية
قال الثعالبي في فقه اللغة: إذا وقعت الريح بين ريحين، فهي النكباء. فإذا وقعت بين الجنوب والصبا، فهي الحربياء. فإذا هبت من جهات مختلفة، فهي المتناوحة. فإذا كانت لينة، فهي الريدانة. فإذا جاءت بنفس ضعيف وروح، فهي النسيم. فإذا كان لها حنين كحنين الإبل، فهي الحنون. فإذا ابتدأت بشدة، فهي العاصف، والسيهوج. فإذا كانت شديدة ولها زفزفة وهي الصوت، فهي الزفزافة. فإذا اشتدت حتى تقلع الخيام، فهي الهجوم. فإذا حركت الأغصان تحريكاً شديداً أو قلعت الأشجار، فهي الزعزاع، والزعزعان، والزعزع فإذا جاءت بالحصباء، فهي الحاصبة. فإذا درجت حتى ترى لها ذيلاً كالرسن في الرمل، فهي الدروج. فإذا كانت شديدة المرور، فهي النؤوج. فإذا كانت سريعة، فهي المجفل، والجافلة. فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء، فهي الإعصار. فإذا هبت بالغبرة، فهي الهبَوة. فإذا حملت المور وجرت الذيل، فهي الهوجاء. فإذا كانت باردة فهي الحرجف، والصرصر، والعرية. فإذا كان مع بردها ندىً، فهي البليل. فإذا كانت حارةً، فهي الحرور، والسموم. فإذا كانت حارة وأتت من قبل اليمن، فهي الهيف. فإذا كانت باردة شديدة تخرق البيوت، فهي الخريق. فإذا ضعفت وجرت فويق الأرض، فهي المسفسة. فإذا لم تلقح شجرا ولم تحمل مطرا، فهي العقيم."وقد نطق بها القرآن".
الرياح بلفظ الجمع
يقال: الرياح الحواشك: المختلفة الشديدة. البوارح: الشمال الحارة في الصيف. الأعاصير: التي تهيج بالغبار. المعصرات: التي تأتي بالأمطار. المبشرات: التي تهب بالسحاب والغيث السوافي: التي تسقى التراب
ما يتمثل به في ذكر الهواء يقال:
أخف من النسيم. أسرع من الريح. ريحهما جنوب "يضرب للمتصافيين". هو ساكن الريح "إذا كان حليما". قد هبت ريحه "إذا قامت دولته".
ومن أنصاف الأبيات.

إن كنت ريحاً فقد لاقيتَ إعصارا وبعض القول يذَهبُ بالرياح
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن لو كنت ريحا كانت الدبورا
ومن الأبيات:
إذا هبت رياحك ، فاغتنمها فإن لكل خافقةٍ سُكُونُ!
وقال آخر:
وكلَّ ريح لها هُبوُبُ يوما فلا بَّد من رُكُودِ.
وقال آخر:
والريح ترجع عاصفا من بعد ما ابتدأت نسيما.
وقال أبو تمام، عفا الله عنه:
إن الرياح إذا ما أعصفت، قصفت عيدان نجدٍ ولم يعبأن بالرتم.
وقال ابن الرومي، رحمة الله عليه:
لا تطفئن جوىً بلومٍ إنه كالريح تغَرِى النار بالإحراق.

وصف الهواء وتشبيهه
قال عبد الله بن المعتز، رحمة الله عليه:
ونسيم يبشر الأرض بالقط ر كذيل الغلالة المبلول.
ووجوه البلاد تنتظر الغي ث انتظار المحب رَّد الرسول.
وقال ابن الرومي:
حيتك عنا الشمال طاف طائفها تحية، فجرت روحا وريحانا.
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه سرابها، وتنادى الطير إعلانا.
ورق تغنَّى على خضرٍ مهدّلة تسمو بها وتشم الأرض أحيانا.
يخال طائرها نشوانَ من طربٍ والغصن من هزه عطيفة نشوانا.
وقال أيضا:
كأن نسيمها أرج الخزامى ولاها بعد وسميَّ وليُّ.
هدية شمال هبت بليل لأفنان الغصون بها نجي.
إذا أنفاسها نسمت سحيرا تنفس كالشجي لها الخلي
وقال آخر:
وأنفاس كأنفاس الخزامى قبيل الصبح بلتها السماءُ.
تنفس نشرها سحراً فجاءت به سحرية المسرى رخاء.
وقال إسحاق الموصلي:
يا حبذا ريح الجنوب إذا جرت في الصبح وهي ضعيفةُ الأنفاِس!
قد حملت برَدَ الندى وتحملَّت عبقاً من الجثجاث والبسباس!
وقال آخر:
إذا خلا الجو من هواء، فعيشهم غمة وبوس.
فهو حياة لكل حيٍّ، كأن أنفاسه نفوس.
وقال ابن سعيد الأندلسي:
الريح أقود ما يكون لأنها تبدي خفايا الردف والأعكان.
وتميل الأغصان بعد علُّوها حتى تقبل أوجه الغدران.

وكذلك العشاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان.
وقال آخر:
أيا جبلى نعمان بالله خليا سبيل الصبَّا يخلص إلى نسيمها.
أجد بردها أو تشف مني حرارةً على كبدٍ لم يبق إلا صميمها.
فإن الصبا ريح إذا ما تنفست على كبدٍ حراء، قلت همومها.
وقال ابن هتيمل اليمني:
هبت لنا سحراً، والصبح ملتثم، والليل قد غاب فيه الشيب والهرم.
سقيمة من نبات الشرق أضعفها عن قوة السير، لما هبت، السقم.
فبلغت بلسان الحال قائلةً ما لم يبلغه يوماً إلى فم،
سرا لغاينه تسري إلى به من النسيم رسول ليس يتهم.
أصافح الريح إجلالاً لما حملت إلى من ريح برديها وأستلم.

الباب الرابع:

من القسم الثاني من الفن الأول

النار

في أسطقس النار

وأسمائها، وعبادها، وبيوت النيران

حكى أصحاب التواريخ في حدوث النار أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض وحج، ونزل جبل أبي قبيس. فأنزل الله إليه مرختين من السماء، فحك إحداهما بالأخرى فأوريا نارا، فلهذا سمي الجبل بأبي قبيس.
ويدل على أن النار من الشجر، وقوله عز وجل: "الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون". والعرب تقول: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار. لأنهما أسرع اقتداحا.
قال الله عز وجل: "أفرأيتم النار التي توقدون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون". وقال أصحاب الكلام في الطبائع: إن الله عز وجل جمع من النار الحركة، والحرارة، واليبوسة، واللطافة، والنور. وهي تفعل بكل صورة من هذه الصور خلاف ما تفعل بالأخرى.
فبالحركة تعلي الأجسام؛ وبالحرارة تسخن؛ وباليبوسة تجفف؛ وباللطافة تنفذ؛ وبالنور تضيء ما حولها. ومنفعة النار تختص بالإنسان دون سائر الحيوان. فلا يحتاج إليها شيء سواه، وليس به عنها غني في حال من الأحوال.
ولهذا عظمتها المجوس، وقالوا: إذ أفردتنا بنفعها، فنفردها بتعظيمها. على أنهم يعظمون جميع ما فيه منعة على العباد، فلا يدفنون موتاهم في الأرض، ولا يستنجون في الأنهار.

أسماء النار

"وأحوالها في معالجتها وترتيبها"

أما أسماؤها، فمنها: النار، والصلاء، والسكن، والضرمة، والحرق، والحمدة "وهو صوت التهابها"، والحدمة، والجحيم، والسعير، والوحى. وأما تفصيلأحوالها ومعالجتها وترتيبها، فقد قال الثعالبي في فقه اللغة:
إذا لم يخرج النار عن القدح، قيل: كبايكبو. فإذا صوت ولم يخرج، قيل: صلد يصد. فإذا أخرج النار، قيل: ورى يرى. فإذا ألقى الإنسان عليها ما يحفظها ويذكيها، تقول: شيعتها وأثقبتها. فإذا عالجها لتلهب، قال: حضأتها وأرثتها. فإذا جعل لها مذهباً تحت القدر، قال: سخوتها. فإذا زاد في إيقادها وإشعالها، قال: أحججتها.
فإذا اشتد تأججها، فهي جاحمة. فإذا طفئت البتة، فهي هامدة. فإذا صارت رماداً، فهي هابية.
والله تعالى أعلم.

عباد النار
"وسبب عبادتها وبيوت النيران"
أول من عبد النار قابيل بن آدم. وذلك أنه لما قتل أخاه هابيل هرب من أبيه إلى اليمن، فجاءه إبليس لعنه الله، وقال له: إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها. فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار. فهو أول من نصب النار وعبدها.
وأول من عظمها من ملوك الفرس، جم. وهو أحد ملوك الفرس الأول، عظمه ودعل الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب، لأن النور عنده أفضل من الظلمة. ثم عبدت النار بالعراق، وأرض فارس، وكرمان، وسجستان، وخراسان، وطبرستان، والجبال، وأذربيجان، وأران، وفي بلاد الهند، والسند، والصين. وبنى في جميع هذه الأماكن بيوت للنيران، نذكرها بعد إن شاء الله تعالى. ثم انقطعت عبادة النيران من أكثر هذه الأماكن إلا الهند. فإنهم يعبدونها إلى يومنا هذا. وهم طئفة تدعى الإكنواطرية. زعموا أن النار أعظم العناصر جرما، وأوسعها حيزا، وأعلاها مكانا، وأشرفها جوهرا، وأنورها ضياء وإشراقا، وألطفها جسما وكيانا، وأن الاحتياج إليها أكثر من الاحتياج إلى سائر الطبائع؛ ولا نور في العالم إلا بها، ولا نمو ولا انعقاد إلا بممازجتها. وعبادتهم لها أن يحفروا أخدودا مربعا في الأرض ويحشوا النار فيه، وثم لا يدعون طعاماً لذيذاً، ولا شراباً لطيفاً، ولا ثوباً فاخراً، ولا عطراً فائحاً، ولا جوهراً نفيساً، إلا طرحوه فيها: تقرباً إليها، وتبركاً بها، وحرموا إلقاء النفوس فيها، وإحراق الأبدان بها، خلافاً لجماعة أخرى من زهاد الهند. وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظمائها. يعظمون النار لجوهرها تعظيماً بالغاً، ويقدمونها على الموجودات كلها. ومنهم

زهاد وعباد يجلسون حول النار صاغين، يسدون منافسهم حتى لا يصل إليها أنفاسهم نفس صدر عن صدر مجرم. وسنتهم الحث على الأخلاق الحسنة، والمنع من أضدادها، وهي الكذب، والحسد، والحقد، والكفاح، والحرص، والبغي، والبطر. فإذا تجرد الإنسان عنها، تقرب من النار.

وأما بيوت النيران، ومن رسمها من ملوك الفرس
قال المسعودي:
أول ما حكى ذلك عنه أفريدون الملك. وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها، و"هم" معتكفون على عبادتها. "فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها. فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه إلى عبادتها" وأنها واسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها من جنس الآلهة النورية، وأشياء ذكروها له. وجعلوا للنور مراتب وقوانين "وفرقوا بين طبع النار والنور" وزعموا أن الحيوان يجتذبه النور، فيحرق نفسه: كالفراش الطائر بالليل فما لطف جسمه، ويطرح نفسه في السراج فيحرقها. وغير ذلك مما يقع في صيد الليل من الغزلان، والوحش، والطير، وكظهور الحيتان في الماء إذا قربت من السراج في الزوارق كما يصاد السمك ببلاد البصرة في الليل، فإنهم يجعلون السرج حوالي المركب، فيثب السمك من الماء إليها؛ وان النور صلاح هذا العالم، وشرف النار على الظلمة إلى غير ذلك. فلما أخبروا أفريدون بذلك أمر أن تحمل جمرة منها إلى خراسان، فحملت. فاتخذ لها بيتا بطوس. "واتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة". وبيتا آخر بسجستان كواكر، كان اتخذه بهمن بن إسفنديار بن بستاسف بن يهراسف. وبيت آخر ببلاد الشير والران، كانت فيه أصنام أخرجها منه أنوشروان، وقيل إنه صادف هذا البيت، وفيه نار معظمة فنقلها إلى الموضع المعروف بالبركة. وبيت آخر للنار يقال له كوسجة: بناه كيخسرو الملك. وقد كان بقومس بيت نار معظم لا يدرى من بناه، ويقال له حريش. ويقال أن الإسكندر لما غلب عليها. تركها ولم يطفئها.
وبيت نار آخر يسمى كنكدز، بناه سياوش بن كاوس الجبار، وذلك في زمن لبثه بشرق الصين مما يلي البركة.
وبيت نار بمدينة أرجان من ارض فارس، بناه قمار. وبيت بأرض فارس أتخذ في أيام يهراسف.
فهذه البيوت كانت زرادشت بعد ذلك بيوتا للنيران. فكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان، وبيت بمدينة نسا والبيضاء من أرض فارس. وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك بطلب نار كان يعظمها جم فطلبت، فوجدت بمدينة خوارزم. فنقلها يستاسف الملك إلى مدينة دار بجرد من أرض فارس والمجوس تعظم هذه النار مالا تعظم غيرها من النيران والبيوت وللفرس بيت نار بإصطخر فارس، يعظمه المجوس. كان في قديم الزمان للأصنام، فأخرجتها جمان بنت بهمن بن

اسبنديار وجعلته بيت نار. ثم نقلت عنه النار فجرب وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت معظم عندهم اتخذه دارا بن دارا. وفي مدينة جور من أرض فارس بيت بناه أردشير بن بابك وقد كان أردشير بني بيت نار يقال له بارنوا في اليوم الثاني من غلبته على فارس. وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم بناه سابور الجنود ابن أردشير بن بابك حين نزل على هذا الخليج وحاصر القسطنطينية. ولم يزل هذا البيتإلى خلافة المهدي. وكان سابور اشترط على الروم بقاء هذا البيت وبأرض العراق بين نار بالقرب من مدينة السلام. بنته بوران بنت كسرى ابرويز، الملكة، بالموضع المعروف بأسنيبا. وبيوت النيران كثيرة تعظمها المجوس. والذي ذكرناه هو المشهور منها.

نيران العرب

ونيران العرب أربعة عشر نارا.

نار المزدلفة

توقد حتى يراها من دفع من عرفة. وأول من أوقدها قصي بن كلاب.

نار الاستسقاء

كانت الجاهلية الأولى ، إذا تتابعت عليهم الأزمات، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الأمطار. يجمعون لها بقراً، في أذنابها وعراقيبها السلع والعشر، ويصعدون بها إلى جبل وعر، ويشعلون فيها النار، ويضجون بالدعاء والتضرع. وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث. وفي ذاك يقول الوديك الطائي:

لا درَّ درُّ رجالٍ خاب سعيهم، يستمطرون لدى الأزمات بالعشر!

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر؟

وقال أمية بن أبي الصلت:

ويسوقون باقر السهل للطو د مهازيل خشية أن تبورا.

عاقدين النيران في بكر الأذ ناب منها، لكي تهيج النحورا.

سلع ما ومثله عشر ما عائل وما وعالت البيقورا.

نار الزائر والمسافر

ويسمونها نار الطرد. وذلك أنهم كانوا إذا لم يحبوا رجوع شخص، أوقدوا خلفه نارا ودعوا عليه. ويقولون في الدعاء. أبعد الله وأسحقه! وأوقدوا نار إثره. قال الشاعر:

وجمة قوم قد أتوك ولم تكن لتوقد ناراً خلفها للتندم.

والجمة: الجماعة يمشون في الدم، وفي الصلح. ومعنى هذا البيت: لم تندم على ما أعطيت في الحمالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارا كي لا يعودوا.

نار التحاليف

كانوا لا يعقدون حلفهم إلا عليها، فيذكرون منافعها، ويدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض العهد،

ويطرحون فيها الكبريت والملح. فإذ فرقعت هول على الحالف. قال الكميت:

همو خوفوني بالعمى هوة الردى كما شب نار الحالفين المهول.

وقال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس، صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف.

نار الغدر

كانت العرب إذا غدر الرحل بجاره، أوقدوا له نارا بمنى، أيام الحج على الأخشب "وهو الجبل المطل على منى". ثم صاحوا: هذه غدرة فلان. قالت امرأة من هاشم:

فإن نهلك فلم نعرف عقوقا ولم توقد لنا بالغدر نار.

نار السلامة

وهي نار توقد للقادم من سفره، إذا قدم بالسلامة والغنيمة. قال الشاعر:

يا سليمى أوقدي النارا إن من تهوين قد زارا.

نار الحرب

وتسمى نار الأهبة والإنذار. توقد على يفاعٍ، فتكون إعلاما لمن بعد. قال ابن الرومي:

له ناران: نار قرى وحرب. ترى كلتيهما ذات التهاب.

نار الصيد

يوقدونها لصيد الظباء، لتعشى أبصارها.

نار الأسد

كانت العرب توقدها إذا خافوه؛ فإن الأسد إذا عاين النار حدق إليها وتأملها.

نار السليم

توقد للملدوغ، والمجروح، ومن عضه الكلب حتى لا يناموا فيشتد بهم الألم. قال النابغة:

يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع.

وذلك لأنهم يعقلون عليه حلى النساء ويتركونه سبع أيام.

نار الفداء

وذلك أن ملوكهم كانوا إذا سبوا قبيلة وخرجت إليهم السادات في الفداء وفي الاستهياب، كرهوا أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن. وأما في الظلمة فيخفى قدر ما يحسبون من الصفي لأنفسهم، وقدر ما يجودون به، وما يأخذون عليه الفداء. فيوقدون لذلك النار. قال الشاعر:

نساء بني شيبان يوم أوارة على النار إذ تجلى له فتيانها.

نار الوسم

كانوا يقولون للرجل: ما نارك؟ "في الاستخبار عن الإبل" أو ما سمتك؟ "فيقول": حياط، أو علاط، أو حلقة، أو كذا، أوكذا. حكي أن بعض اللصوص قرب إبلا كان قد أغار عليها وسلبها من قبائل شتى إلى بعض الأسواق، فقال له بعض: ما نراك؟ وإنما سأله

عن ذلك، لأنهم كانوا يعرفون ميسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها، فقال:

تسألني الباعة: ما نجارها، إذ زعزعوها فسمت أبصارها؟
وكل دار لأناس دارها! وكل نار العالمين نارها!

نار القرى

وهي من أعظم مفاخر العرب. كانوا يوقدونها في ليالي الشتاء، ويرفعونها لمن يلتمس القرى. فكلما كانت أضخم وموضعها أرفع، كان أفخر، وهم يتمادحون بها، قال الشاعر:

له نار تشب بكل وادٍ إذا النيران ألبست القناعا.

وقال إبراهيم بن هرمة:

إذا ضل عنهم ضيفهم، رفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمرا.

وكانت للعرب نار عظمى تسمى نار الحرتين وهي التي أطفأها الله تعالى بخالد بن سنان العبسي. وكانت حرة ببلاد عبس، وتسمى حرة الحدثان.

روي عن ابن الكلبي أنه قال: كان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لا تمر بشيء إلا أحرقته. وأن خالد بن سنان أخذ من كل بطن من بني عبس رجلاً فخرج بهم نحوها، ومعه درة حتى انتهى إلى طرفها، وقد خرج منها عنق كأنها عنق بعير فأحاط بهم، فقالوا له: هلكت والله أشياخ بني عبس آخر الدهر! فقال خالد كلا! وجعل يضرب ذلك العنق بالدرة ويقول: بداً بداً، كل هدي الله يؤدى! أنا عبد الله خالد بن سنان! فما زال يضربه حتى رجع، وهو يتبعه والقوم معه كأنه ثعبان يتملك حجارة الحرة حتى انتهى إلى قليب، فانساب فيه وتقدم عليه، فمكث طويلاً. فقال ابن عم لخالد، يقال له عروة بن شب: لا أرى خالدا يخرج إليكم أبدا! فخرج ينطف عرقا، وهو يقول: زعم ابن راعية المعزى أني لا أخرج. فقيل لهم بنو راعية المعزى إلى الآن.

وفي هذه النار يقول الشاعر:

كنار الحرتين لها زفير تصم مسامع الرجل السميع.

النيران المجازية

ومن النيران، نيران مجازية لا حقيقة. فمنها:

نار البرق. وقد وصفها بعض الأعراب فقال:

نار تجدد للعيدان نظرتها والنار تشعل عيدان فتحترق.

إشارة إلى أن النار تحرق العيدان، إلا نار البرق فأنها تجيء بالغيث.

نار المعدة. وهي التي تهضم الطعام. وهي كنار الحياة، ونار الغريزة. وقوتها مادة للصحة، كما أن ضعفها سبب للعلة.

نار الحمى. وقد قيل: النيران ثلاثة: نار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار الآخرة؛ ونار تأكل وتشرب، وهي نار الحمى،تأكل اللحم وتشرب الدم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدنيا.

ومن النيران المجازية:

نار الشوق، نار الشره، نار الشباب، نار الشراب.
قال شاعر يمدح بعض الملوك:

وقيت نار الجحيم يا ملك، أربع نيرانه له نسق!
نار شباب تروق نظرتها، ونار راح كأنه شفق،
ونار سلطانه، تقارنها نار قرى لا تزال تأتلق،

نيران يضرب المثل بها
يضرب المثل:
بنار الحباحب. وهي نار لبخيل كان يوقدها. فإذا استضاء بها إنسان، أطفأها. وقيل: إنها النار التي توريها الخيل بسنابكها من الحجارة. قال الله تعالى: "فالموريات قدحا". وقال النابغة:

ويوقدن بالصفاح نار الحباحب.

وهذا المثل يضرب لما لا منفعة فيه ولا حاصل له.
نار الغضى، يضرب بها المثل في الحرارة. وهي جمر أبيض لا يصلح إلا للوقود.
نار العرفج. وهي نار تتقد سريعاً. قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين:
للسؤدد أسرع إليك من النار في يبس العرفج. إذا التهبت فيه النار انتشرت وتسمى نار الزحفتين، لأن العرفج إذا انتشرت فيه النار عظمت واستفاضت. فمن كان بالقرب منها زحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها. فيحتاج الذي زحف عنها أن يزحف إليها. فلا يزال المصطلى بها كذلك، فلذلك سميت نار الزحفتين.
نار الحلفاء. يضرب بها المثل في سرعة الاتقاد، كما قيل:

فما ظنك بالحلفا ء أدنيت له نارا.

وفي سرعة الانطفاء، كما قيل: نار الحلفاء، سريعة الانطفاء.
ما جاء منها على لفظ أفعل
يقال:
آكل من النار؛ أحر من الجمرة؛ أحسن من النار؛ أسرع من شرارة في قصباء.ويقال: فلان واري الزناد؛ وريت بك زنادي؛ فلان ثاقب الزند؛ فلان كابي الزناد؛ صلدت زناده؛ فلام يصطلى بناره؛ هو القابس العجلان؛ هما زندان في وعاء.
ومن أنصاف الأبيات:

والنار قد يخمدها النافخ كملتمس إطفاء نار بنافخ
والجمر يوضع في الرماد فيخمد كذا كل نارروحت تتوهج

هيهات تكتم في الظلام المشاعل
ومن الأبيات قول علي بن الجهم:

والنار في أحجارها مكنونة لا تصطلى إن لم تثرها الأزند

وقال آخر:

والنار بالماء الذي هو ضدها تعطي النضاج، وطبعها الإحراق.

وقال آخر:

والكاتم الأمر ليس يخفى كالموقد النار باليفاع.

وقال آخر:

لا تتبع كل دخان ترى فالنار قد توقد للكي.

وقال أبو تمام:

لولا اشتعال النار فيما جاورت، ما كان يعرف طيب عرف العود.

وقال آخر:

وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للساري، وأنت كذاكا.

وصف النار وتشبيهها

قال عبد الله بن المعتز، غفر الله له:

كأن الشرار على نارها وقد راق منظرها كل عين.
سحالة تبر إذا ما علا فإما هوى ففتات اللجين.

أخذه العسكري فقال:

أوقدت بعد الهدو نارا لها على الطارقين عين.
شرارها إن علا نضارٌ لكنه إن هوى لجين.

وقال السري الرفاء:

والتهبت نارنا، فمنظرها يغنيك عن كل منظر عجب.
إذا رمت بالشرار فاطردت على ذراها مطارد اللهب،
رأيت ياقوتة مشبكة تطير عنها قراضة الذهب.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:

حمراء نازعت الرياح رداءها وهناً وزاحمت السماء بمنكب.
ضربت سماء من دخان فوقها، لم تدر منها شعلة من كوكب.
وتنفخت عن كل نفحة جمرة باتت لها ريح الشمال بمرقب.
قد ألهبت فتذهبت فكأنها شقراء تمرح في عجاج أكهب.

وقال أبو الفتح كشاجم:

كأنما النار والرماد وقد كاد يوارى من نورها النورا:
ورد جني القطاف أحمر قد ذرت عليه الأكف كافورا.

وقال تاج الملوك بن أيوب:

أما ترى النار وهي تضرم في أحشاء كانونها وتلتهب؟
كأنما الفحم فوقها قضب من عنبر وهي تحته ذهب.

وقال أبو مروان بن أبي الخصال:

لابنة الزند في الكوانين جمر كالدراري في دجى الظلماء.
خبروني عنها و لا تكتموني، ألديها صناعة الكيمياء؟
سبكت فحمها صفائح تبر رصعتها بالفضة البيضاء.
كلما رفرف النسيم عليها رقصت في غلالة حمراء.

هذا البيت مأخوذ من قول الخفاجي:

وكأنها والريح عابثة بها تزهى فترقص في قميص أحمر.

وقال أبو هلال العسمري:

نار تلعب بالسقوف كأنها حلل مشققة على حبشان.
ردت عليها الريح فضل دخانها فأنت به سبجاً على عقيان.
فالجو يضحك في ابيضاض شرائر منها ويعبس في اسوداد دخان.

وقال ابن أبي الخصال:

وعوجوا على ياقوتة ذهبية يهيم بها المقرور بالسبرات.
إذا ما ارتمت من فحمها بشرارها رأيت نجوم الليل منكدرات.

وقال سيف الدولة بن حمدان:

كأنما النار والرماد معا وضوءها في ظلامه يحجب:
وجنة عذراء مسها خجل فاستترت تحت عنبر أشهب.

وقال آخر:

فحم كيوم الفراق تشعله نار كنار الفراق في الكبد.
أسود قد صار تحت حمرتها مثل العيون اكتحلن بالرمد.

وقال أبو طالب المأموني:

ما نرى النار كيف أسقمها الق ر فأضحت تخبو وطورا تسعر؟
وغدا الجمر والرماد عليه في قميص مذهب ومعنبر؟

وقال أبو فراس الحمداني:

لله برد ما أش د ومنظر ما كان أعجب!
جاء الغلام بناره هو جاء في فحم تلهب.
فكأنما جمع الحلي فمحرق منه ومذهب.
ثم انطفت فكأنما ما بيننا ند معشب.

الشمعة والشمعدان
"والسراج والقنديل"

أما الشمعة، فمن جيد ما قيل فيها قول الأرجاني:

نمت بأسرار ليل كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها.
قلب لها لم يرعنا وهو مكتمن إلا برقية نار من تراقيها.
سقيمة لم يزل طول اللسان لها في الحي يجني عليها ضرب هاديها.
غريقة في دموع، وهي تحرقها أنفاسها بدوام من تلظيها.
تنفست نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط فبات الوجد يبكيها.
يخشى عليها الردى مهما ألم بها نسيم ريح إذا وافى يحيها.
بدت كالنجوم هوى في إثر عفرية في الأرض فاشتعلت منه نواصيها.
نجم رأى الأرض أولى أن يبوأها من السماء، فأمسى طوع أهليها.
كأنها غرة قد سال شادخها في وجه ذهماء يزهيها تجليها.
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة، فكلما حجبت، قامت تحاكيها.
وحيدة كشباة الرمح هازمة عساكر الليل إن حلت بواديها.
ما طنبت قط في أرض مخيمة إلا وأقمر للأبصار داجيها.
لها غرائم تبدو من محاسنها، إذا تفكرت يوماً في معانيها.
كصعدة في حشا الظلماء طاعنة تسقي أسفلها ريا أعاليها.
فالوجنة الورد إلا في تناولها والقامة الغصن إلا في تثنيها.

صفراء هندية في اللون إن نعتت والقد واللين إن أتممت تشبيها.
فالهند تقتل بالنيران أنفسها وعندها أن ذاك القتل يحييها.
قد أثمرت وردة حمراء طالعة تجني على الكف إن أهويت تجنيها.
ورد تشاك به الأيدي إذا قطفت، وما على غصنها شواك يوقيها.
ما إن تزال تبيت الليل ساهرة وما بها غلة في الصدر تطفيها.
صفر غلائلها، حمر عمائمها سود ذوائبها، بيض لياليها.
تحيي الليالي نوراً، وهي تقتلها. بئس الجزاء لعمر الله تجزيها!
قدت على ثوب قد تبطنها ولم يقدر عليها الثوب كاسيها.
غراء فرعاء ما تنفك قالية تقص لمتها طوراً وتفليها.
شباء شعثاء لا تكسي غدائرها لون الشبيبة إلا حين تبليها.
قناة ظلماء لا تنفك يأكلها سنانها طول طعن أو يشظيها.
مفتوحة العين تفنى ليلها سهراً؛ نعم، وإفناؤها إياه يفنيها.
وربما نال من أطرافها مرض لم يشف منه بغير القطع مشفيها.

وقال آخر:

بيضاء أضحكت الظلام فراعها فبكت واسبلت الدموع بوادرا.
جفت دموع جفونها فكأنما كسيت من الطلع النضيد ظفائرا.

وقال أبو القاسم المطرز من الأبيات:

وللشموع عيون كلما نظرت تظلمت من يديها أنجم الغسق.
من كل مرهفة الأعطاف كالغصن الميادلكنه عار من الورق.
إني لأعجب منها وهي وادعة تبلى وعيشتها من ضربة العنق!

وقال آخر:

جاءت بجسم كأنه ذهب تبكي وتشكي الهوى وتلتهب.
كأنها في أكف حاملها رمح لجين سنانه ذهب.

وقال محمد بن أبي الثبات، شاعر اليتيمة:

ومجدولة مثل صدر القناة تعرت وباطنها مكتسي.
لها مقلة هي روح لها، وتاج على الرأس كالبرنس.
إذا غازلتها الصبا حركت لسانا من الذهب الأملس.
وتنتج من حيث ما ألقحت ضياء يجلي دجى الحندس.
فنحن من النور في أسعد وتلك من النار في أنحس!

وقال آخر:

ورشيقة بيضاء تطلع في الدجى صبحا وتشفى الناظرين بدائها.
شابت ذوائبها أوان شبابها واسود مفرقها أوان فنائها.
كالعين: في طبقاتها ودموعها وبياضها وسوادها وضيائها.

وقال الصاحب بن عباد:

وشمعة قدمت إلينا تجمع أوصاف كل صب:

صفرة لون وذوب جسم وفيض دمع، وحر قلب.

وقال السري الرفاء:

مفتولةٌ مجدولةٌ تحكي لنا قد الأسل.

كأنها عمر الفتى والنار فيها كالأجل.

ومما ورد في وصفها نثرا.

من رسالة لابن الأثير الجزري جاء منها: وكان بين يدي شمعة تعم مجلسي بالإيناس، وتغني بوجودها عن كثرة الجلاس، وكانت الريح تتلاعب بشعبها، وتدور على قطب لهبها؛ فطورا تقيمه فيصير أنمله، وطورا تميله فيصير سلسله؛ وتارة تجوفه فيصير مدهنه، وتارة تجعله ذا ورقات فيمثل سوسنه؛ وآونة تنشره فيبسط منديلا، وآونة تلقه على رأسها فيستدير إكليلا.

ومن رسالة أخرى له: وكانت الريح تتلاعب بلهبها لدى الخادم فتشكله أشكالاً، فتارة تبرزه نجما، وتارة تبرزه هلالا، ولربما سطع طورا كالجلنارة في تضاعيف أوراقها، وطورا كالأصابع في انضمامها وافتراقها.

وقال سيف الدين المشد في الفانوس:

وكأنما الفانوس في غسق الدجى دنف براه سقمه وسهاده.

حنيت أضالعه ورق أديمه وجرت مدامعه وذاب فؤاده.

ومما قيل في السراج

من رسالة لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال، جاء منها: عذرا إليك أيدك الله! فإني خططت والنوم مغازل، والقرنازل؛ والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج؛ فطورا تبرزه سنانا، وتحركه لسانا؛ وآونه تطويه جنابه، وأخرى تنشره ذوائبه؛ وتارة تقيم إبرة لهب، وتعطفه برة ذهب؛ وحينا تقوسه حاجب فتات، ذات

غمزات؛ وتسلطه على سليطه، وتديله على خليطه؛ وربما نصبته أذن جواد، ومسخته حدق جراد؛ ومشتقه حروف برق، بكف ودق؛ ولثمت بسناه قنديله، وألقت على أعطافه منديله؛ فلاحظ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين.

رسالة القنديل والشمعدان.

من إنشاء الولى الفاضل البارع البليغ تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، سمعتها من لفظه، وقرأتها عليه، وأجاز لي روايتها عنه، وهي الموسومة بزهر الجنان، في المفاخرة بين القنديل والشمعدان.

ابتدأها بأن قال: الحمد لله الذي أنار حالك الظلماء، بأنوار بدر السماء؛ وحلي جيدها، بعقود النجوم، وحرس مشيدها، بسهام الرجوم؛ وجعلها عبرة للاستبصار، ونزهة للأبصار؛ غشاؤها لا زورد مكلل بنضار، أو أقاحي خميلة تفتحت فيها أزرار الأزهار؛ تهدى السارى بسواريها، وتزرى بالدررر أنوار دراريها؛ كرع في نهر مجرتها النسران، ورتع في مراعي رياضها الفرقدان.

أحمده على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدي واجب حقها إنسان يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان. وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود، وأظهر بظهور أفعال الركوع والسجود؛ صلى الله عليه وسلم وعلى آله الوافين للعهود، وعلى أصحابه أهل الإفضال والجود، صلاة وسلام دائمين إلى اليوم الموعود! وبعد فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب، متباينة الأسلوب؛ طالما تلاعب الأديب بفنونها بين جد ومجون، وكيف لا والحديث ذو شجون. وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز ملح الأدب، وعلى إظهار لطائف لغة العرب؛ فتمثل في خاطري المفاخرة بين الشمعدان والقنديل، ولا بد من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل؛ لأنهما آلتا نور، ونديما سرور؛ طالما مزقا جلباب الدجى بأضوائهما، وحسما مادة الظلمة بأنوارهما؛ وطلعا في سماء المجالس بدورا، وأخجلا نور الرياض لما أصدر من جوهرهما نورا. سما كل واحد منهما إلى أنه الأصل،وأن بمدحه يحسن الفضل والوصل؛ وأنه الجوهرة اليتيمة، والبدرة التي ليست لها قيمة؛ سارت بمحاسنه ركائب الركبان، ونظمت في جيد مجده قلائد العقيان.

فأحببت أن أنظمهما في ميدان المناظرة ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة، ويظهر نقائص صاحبه الفاضحة؛ وليتسم غارب الاستحقاق بالفضيلة، ويؤكد في تقرير فضائله الراجحة دليله؛ مع أنه لا تقبل الدعاوى إلا بالبرهان، ولعمري لقد قيل قدماً:

من تحلى بغير ما هو فيه فضحته شواهد الامتحان.

فأتلع الشمعدان جيدة للمطاولة، وعرض سمهريه اللجيني للمناضلة،وقال:

استنت الفصال حتى القرعى

لست بنديم الملوك في المجالس، كلا ولا الروضة الغناء للمجالس! طالما أحدقت بي عساكر النظار، ووقفت في استحسان هياكلي رؤية الأبصار؛ وحملت على الرؤوس إذا علقت بآذانك، وجليت كجلاء المرهفات إذا اسود وجهك في دخانك.

فنضنض لسان القنديل ونضنضة الصل، وارتفع ارتفاع البازي المطل. وقال: إن كان فخرك بمجالسة السلاطين، فافتخاري بمجالسة أهل الدين!، طالما طلعت في أفق المحراب نجما ازداد علا، وازدانت الأماكن المقدسة بشموس أنواري حلا؛ جمع شكلي مجموع العناصر، فعلى مثلي تعقد الخناصر؛ يحسبني الرائي جوهرة العقد الثمين، إذا رأى اصفرار لونك كصفرة الحزين؛ ولقد علوتك في المجالس زمانا، ومن صبر على حر المشقة ارتفع مكانا.

فنظر إليه الشمعدان مغضبا، وهم بأن يكون عن جوابه منكبا. وقال: أين ثمنك من ثمني، ومسكنك من مسكني؟ صفائحي

صفحات الإبريز، فلذا سموت عليك بالتبريز؛ تنزه العيون في حمائلي الذهبية، وتسر النفوس ببزوغ أنواري الشمسية؛ ولا يملكني إلا من أوطنته السعدة مهادها، وقربت له الرياسة جيادها؛ ولقد نفعت في الصحة
والسقم، وازدادت قيمتي إذا نقصت في القيم؛ وإن انفصمت عراك فلا تشعب، ولا تعاد إلى سبك نار فتصب وتقلب؛ لست من فرسان مناظرتي، ولا من قرناء مفاخرتي.
فالتفت القنديل التفات الضرغام، وفوق إلى قرينه سهام الملام. وقال: أنت عندي كثعاله، ولا محاله؛ طالك العنقود، فأبرزت أنواع الحقود؛ وأين الثريا من يد المتناول؟ أم أين السها من كف المتطاول؟ تالله إنك في صرفك بصفرك مغلوط! لقد خصصت بالعلو وخصصت بالهبوط. ترى باطني من ظاهري مشرقا، وتخالني لخزائن الأنوار مطلقا؛ فحديث سيادتي مسلسل، وتاج فضائلي بجوهر العلو مكلل.
فلحظه الشمعدان بطرف طرفه، وأرسل في ميدان المناظرة عنان طرفه. وقال: إن افتخارك بالعلو غير مفيد، وميزة اختصاصك به ليس له أبهة مزيد؛ طالما على القتام وانحطت الفرسان، ومكث الجمر وسما الدخان؛ ولقد صيرتك كنظر المشنوق حاله، وكضوء السها ذباله؛ وأنت الخليق بما قيل:

وقلب بلا لب، وأذن بلا سمع

وسلاسلك تشعر بعقلك، وعلوك يبني على غلو إسقاط كمثلك؛ عادلت التبر كفة بكفه، ووزنته إذا كان فيه خفه؛ فأصخ لمفاخري الجليله، واستمع مناقبي الجميلة. أطارد جيوش الظلماء برمحي، وأمزق أثواب الديجور بصبحي؛ وجمع عاملي بين طلع النخل، وحلاوة النحل، يتلو سورة النور لساني، ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم جناني؛ أسامر المليك خلوه، ويستجلى من محاسني أحسن جلوه. ولله در القائل:

انظر إلى شمعدان شكله عجب كروضة روضت أزهارها السحب.

يطارد الليل رمح فيه ورق سنانه لهب من دونه الذهب.

فمثل هذه المناقب تتلى، ومثل هذه المحاسن تظهر وتجلى. فأضرم نار تبيينه، في أحشاء قرينه. فعندها قال القنديل: لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك، لما وقفت في المناظرة ركائب سيرك؛ فاشكر اليد البيضاء من شمعك، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك؛ وأما افتخارك بتلاوة سورة النور، فأنا أحق بها منك إذ محلي الجوامع، والفرقان فارق بيني وبينك مع أنه ليس بيننا جامع؛ ففضيلتي فيه بينه،وآية نورى في سورة النور مبينة؛ فاقطع مواد اللجاجة، واقرأ الآية المشتملة على الزجاجة؛ يظهر لك من هو الأعلى، ومن بالفتخار الأولى؛ تخالني درة علقت في الهواء، أو كوكبا من بعض كواكب الجوزاء.
ولله در القائل:

قنديلنا فاق بأنواره نور رياض لم تزل مزهره.

ذبالة فيه إذا أوقدت حكت بحسن الوضع نيلوفره.
لا يحمل الأقذاء خاطري، ولا يغتم مشاهدي وناظري؛ فأنا خلاصة السبك، والتبر الذي لا يفتقر إلى الحك؛ اشتقاق اسمك من النحوس، ومن جرمك تقام هياكل الفلوس؛ لقد عرضت نفسك للمنية، وانعكست عليك مواد الأمنية؛ مع أن الحق أوضح من لبة الصباح، وأسطع من ضوء المصباح؛ والآن غضضت بريقك، وخفيت لوامع بروقك؛ فهذه الشهباء والحلبة، وهذه ميادين المناظلة رحبه.
فحار الشمعدان في الجواب، وجعل ما بداه أولاً فصل الخطاب.
فقال القنديل:
لا بد من الإقرار بأن قدح المعلى، وأن عليك بالتقديم الأولى؛ وأن مقامي العالي، ونوري المتوالي.
فقال الشمعدان:
لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك، وكونك الكوكب الدري الذي قصر عن بلوغك باع مثيلك.
فجنح الشمعدان للسلم، وترفع عن استيطان مواطن الإثم؛ وشرع يبدي شعائر الخضوع، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع؛ قال: لولا حمية النفوس، ما تجملت بمفاخرنا صفحات الطروس؛ ولولا القال والقيل، ما ضمنا معرض التمثيل؛ ولكن أين صفاءك من كدري، وأين نظرك من نظري؛ خصك الله بنوره، وذكرك في فرقانه وزبوره.
فعندها تهلك أسارير القنديل، وتبسم فرحاً بالتعظيم والتبجيل.
وقال: حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف، وإظهار محاسن الأوصاف؛ ففضلك لا يبارى، ووصفك لا يجارى؛ يحسبك الرائي خميلة نور تفتحت أزهارها، وحديقو نرجس أطردت أنهارها؛ تسر بك النفوس، وتدار على نضارتك الكؤوس؛ وإن اللائق بحالنا طي بساط المنافسة،
وإخماد شرر المقابسة؛ واستغفار فيما فرض من كلامنا، والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا.
ونقول: الأصل فيما نقلناه عدمه، فقد حف كل واحد منا في إبراز معايبة قلمه. ونسأل الله أن تدوم لنا نعمه، ويتعاهدنا في المساء والصباح كرمه! بمنه وجوده وكرمه! آمين!

القسم الثالث من الفن الأول

الليالي والأيام والشهور والأعوام

في الليالي والأيام والشهور والأعوام والفصول والمواسم والأعياد

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول

الليل والأيام

في الليالي

روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: خلق الله الخلق في ظلمة. "وروي في عماء" ثم رش عليهم من نوره. وهذا يدل على أن الظلمة خلقت قبل النور. وروي أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سئل عن الليل، أكان قبل أو النهار؟ قال: أرأيتم حيث كانت السماوات والأرض رتقا، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل كان قبل النهار.
والذي ورد في القرآن من ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور بدأ الله عز وجل بذكر الليل قبل النهار، وبالظلمات قيل النور.
ويروى أن الله عز وجل لما خلق السماء والأرض، وقع ظل السماء على الأرض فأظلمت، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا. ثم خلق الزمان وقسمه قسمين: ليلا، ونهارا. فجعل حصة الليل للقمر، وحصة النهار للشمس. فكانا يتعاقبان بالطلوع فيهما، فلم يكن بين الليل والنهار فرق في الإضاءة. فلما أراد الله عز وجل خلق النوع الإنساني - وعلم أنه لا غنى له عن حركته للمعاش نهاراً وسكونه للراحة ليلاً - أمر جبريل فأمر جناحه على القمر فمحا نوره. فالسواد الذي يرى في القمر هو أثر المحو، وصار الليل مظلماً والنهار مبصراً.
وروي أيضاً أن الله عز وجل خلق حجاباً من ظلمة مما يلي المشرق ووكل به مالكاً يقال له سراهيل. فإذا انقضت مدة النهار، قبض الملك قبضة من تلك الظلمة واستقبل بها المغرب، فلا تزال الظلمة تخرج من خلل أصابعه وهو يراعي الشفق. فإذا غاب الشفق، بست كفه فطبق الدنيا ظلمة. فإذا انقضت مدة الليل قبض كفه على الظلمة، إصبعاً بعد إصبع إلى أن يذهب الظلام، حتى تنتقل الشمس من الشرق إلى الغرب. وذلك من أشراق الساعة. والله أعلم!

ما قيل في الليل وأقسامه
الليل طبيعي وشرعي.
أما الطبيعي، فهو من حين غروب الشمس واستتارها إلى طلوعها وظهورها. وأما الشرعي، فهو من حين غروبها إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بقوله تعالى: "حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر".
والليل ينقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، لها أسماء وضعتها العرب، وهي: الشاهد، ثم الغسق، ثم العتمة، ثم الفحمة، ثم الموهن، ثم القطع، ثم الجوشن، ثم الكعبة، ثم التباشير، ثم الفجر الأول، ثم الفجر الثاني، ثم المتعرض.
هذا ما ذكره ابن النحاس في وصف صناعة الكتاب.
وحكى الثعالبي في فقه اللغة - عن حمزة الاصفهاني، قال: وعليه عهدته - أسماء غير هذه، وهي: الجهمة، والشفق، والغسق، والعتمة، والسدفة، والزلة، والزلفة، والبهرة ،والسحر، والفجر، والصبح، والصباح.
فصل

وقد عبر الليالي عن الأيام، كقول الله عز وجل: "وواعدنا موسى ثلاثين ليلة"؛ وقوله تعالى: "والفجر وليال عشر". فعبر عن الأيام بالليالي، لأن كل ليلة تتضمن يوماً.

الليالي المشهورة

من الليالي المشهورة

ليلة البراءة. وهي ليلة النصف من شعبان، قيل سميت بذلك لأنها براءة لمن يحيها؛ وليلة القدر. والصحيح أنها من مفردات العشر الأخير من شهر رمضان؛ وليلة الغدير. وهي ليلة الثامن عشرة من ذي الحجة.

وليلة الهرير. وهي ليلة من ليالي صفين، قتل فيها خلق كثير من أصحاب معاوية رضي الله عنه؛ وليلة الخلعاء. وهي ليلة باتها أبو الطمحان القيني عند دبرانيه، فأكل طفيشلها بلحم الخنزير، وشرب خمرها، وزني بها، وسرق كساءها؛ وليلة النابغة. يضرب بها المثل في الخوف؛ وليلة المتوكل. تضرب مثلاً في موت نتج من سرور، لأنه قتل في مجلس أنسه، على ما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

ما يتمثل به في ذكر الليل

يقال: أطغى من الليل. أطفل من نيل على النهار. أحير من الليل. أستر من الليل. أظلم من الليل. أندى من ليلة ماطرة.

ويقال: الليل أخفى للويل. الليل نهار الأريب. الليل طويل وأنت مقمر. والليل وأهضام الوادي.

والليل أعور"لأنه لا يبصر فيه".

ويقال: اتخذ الليل جملا. شمر ذيلا، وادرع ليلا. أمر نهار قضى بليل.

ومن أنصاف الأبيات:

الليل حبلي ليس تدري ما تلد ما أقصر الليل على الراقد!

ما أشبه الليلة بالبارحة! وليل المحب بلا آخر

إحدى لياليك فهيسي هيسي! فإنك كالليل الذي هو مدركي

ومن الأبيات:

إن الليالي لم تحسن إلى أحد إلا أساءت إليه بعد إحسان.

والليالي كما عهدت حبالى مقر بات يلدن كل عجيب.

أما ترى الليل والنهارا جارين لا يبقيان جارا؟

وقال حميد بن ثور:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تمنيا!

وقال أبو حية النميري:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة، تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا.

وصف الليل وتشبيهه

قد أكثر الشعراء في وصف الليل بالطول والقصر. وذكروا سبب الطول الهموم وسبب القصر السرور.

ولهذا أشار بعض الشعراء في قوله:

إن الليالي للأنام مناهل تطوى وتنشر بينها الأعمار.
فقصارهن مع الهموم طويلة، وطوالهن مع السرور قصار.
وقال آخر:
إن التواصل في أيامه قصر، كما التهاجر في أيامه طول.
فليس يعرف تسهيداً ولا رمد جفن برؤية من يهواه مشغول.
وقال ابن بسام:
لا أظلم الليل ولا أدعي أن نجوم الليل ليست تغور.
ليل كما شاءت فإن لم تزر طال؛ وإن زارت، فليل قصير.
أصله من قول علي بن الخليل:
لاأظلم الليل ولا أدعي أن نجوم الليل ليست تعول.
ليل كما شاءت قصير إذا جادت، وإن صدت، فليل طويل.
وقال آخر:
أخو الهوى يستطيل الليل من سهر، والليل في طوله جار على قدره.
ليل الهوى سنة في الهجر مدته؛ لكنه سنة في الوصل من قصر.
وقال الوليد ين يزيد بن عبد الملك:
لا أسأل الله تغيرا لما صنعت: نامت وقد أسهرت عيني عيناها.
فالليل أطول شيء حين أفقدها والليل أقصر شيء حين ألقاها.
ما وصف به من الطول
قال الخباز:
وليل كواكبه لا تسير ولا هو منها يطيق البراحا.
كيوم القيامة في طوله على من يراقب فيه الصباحا.
وقال ابن المعتز:
مالي أرى الليل مسبلاً شعراً عن غرة الصبح غير مفروق.
وقال بشار:
خليلي!ما بال الدجى لا يزحزح، وما بال ضوء الصبح لا يتوضح؟
أضل النهار المستنير طريقه؟ أم الدهر ليل كله ليس يبرح؟
وقال الرفاء:
ألا رب ليل بت أرعى نجومه فلم أغتمض فيه ولا الليل أغمضا.
كأن الثريا راحة تشبر الدجى لتعلم طال الليل لي أم تعرضا.
عجبت لليل بين شرق ومغرب يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا؟
وقال محمد بن عاصم:
أقول، والليل دجى مسبل والأنجم الزهر به مثل:
يا طول ليل ما له آخر منك، وصبح ما له أول!
وقال التنوخي:
وليلة كأنها قرب أمل ظلامها كالدهر ما فيه خلل.

كأنما الإصباح فيها باطل أزهقه الله بحق، فبطل.
ساعاتها أطول من يوم النوى وليلة الهجر وساعات العذل.
مؤصدة على الورى أبوابها كالنار لا يخرج منها من دخل.

وقال أبو محمد، عبد الله بن السيد البطليوسي:

ترى ليلنا شابت نواصيه كبرة كما شب، أو في الجوروض نهار؟
كأن الليالي السبع في الأفق جمعت ولا فصل في ما بينها بنهار.

وقال الشريف البياضي:

أقول لصحبي والنجوم كأنها، وقد ركدت في بحر حندسها غرقى:
أرى ثوب هذا الليل لا يعرف البلى! فهل أرين للصبح في ذيله فتقا؟

وقال أيضاً:

أقول وللدجى عمر مديد وآخره يرد إلى معاد.
وقد ضلت كواكبه، فظلت حيارى ما لها في الأفق هادي:
لعل الليل مات الصبح فيه، فلازم بعده لبس الحداد.

وقال آخر:

أما لظلام ليلي من صباح؟ أما للنجم فيه من براح؟
كأن الأفق سد، فليس يرجى به نهج إلى كل النواحي.
كأن الشمس قد مسخت نجوماً تسير مسير رواد طلاح.
كأن الصبح مهجور طريد، كأن الليل مات صريع راح.
كأن بنات نعش متن حزناً، كأن النسر مكسور الجناح.

وقال آخر:

يا ليلة طالت على عاشق منتظر للصبح ميعادا!
كادت تكون الحول في طولها؛ إذا مضي أولها، عاد.

وقال ابن الرومي:

رب ليل كأنه الدهر طولاً قد تناهى فليس فيه مزيد.
ذا نجوم كأنهن نجوم الش يب ليست تزول، لكن تزيد.

وقال أبو الأحنف:

حدثوني عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهارا.

وقال بشار:

طال هذا الليل بل طال السهر! ولقد أعرف ليلة بالقصر.
لم يطل حتى دهاني بالهوى ناعم الأطراف فتان النظر.
فكأن الهجر شخص مائل كلما أبصره النوم نفر.

وقال إبراهيم بن خفاجة الأنداسي:

يا ليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى؟
وما لدمعي طليق وأنجم الجو أسرى؟
وقد طما بحر ليل لم يعقب المد جزرا.
لا يعبر الطرف فيه غير المجرة جسراً.

وقال أبو مروان ابن أبي الخصال:

وليل كأن الدهر أفضى بعمره جميعاً إليه، فانتهى في ابتدائه.

يحدث بعض القوم بعضاً بطوله، ولم يمض منه غير وقت عشائه.

وقال إبراهيم ولد ابن لنكك البصري، شاعر اليتيمة:

وليلة أرقني طولها فبتها في حيرة الذاهل.
كأنما اشتقت لإفراطها في طولها من أمل الجاهل.

وقال امرؤ القيس:

وليل كموج البحر مرخٍ سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي.
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكل:
ألا أيها الليل الطويل، ألا أنجلي بصبح! وما الإصباح منك بأمثل!
فيا لك من ليل كأن نجومه بأمراس كتان إلى صم جندل.

وقال آخر:

أراقب في السماء بنات نعش؛ ولو أستطيع، كنت لهن حادي.
كأن الليل أوثق جانباه وأوسطه بأمراس شداد.

وقال أخرم بن حميد:

وليل طويل الجانبين قطعته على كمد، والدمع تجري سواكبه.
كواكبه حسرى عليه كأنها مقيدة دون المسير كواكبه.

وقال ابن الرقاع:

وكأن ليلي حين تغرب شمسه بسواد آخر مثله موصول.
أرعى النجوم. إذا تغيب كوكب، أبصرت آخر كالسراج يجول.

وقال آخر:

ما لنجوم الليل لا تغرب؟ كأنها من خلفها تجذب!
رواكد ما غار في غربها ولا بدا من شرقها كوكب.

وقال سعيد ين حميد:

يا ليل، بل يا أبد! أنائم عنك غد؟
يا ليل لو تلقى الذي ألقى بها أو تجد،
قصر من طولك أو ضعف منك الجلد!

وقال سيف الدين المشد:

مات الصباح بليل أحييته حين عسعس.
لو كان في الدهر صبح يعيش، كان تنفس.

ما وصف به من القصر

فمن ذلك قول إبراهيم بن العباس:

وليلة إحدى الليالي الزهر، قابلت فيها بدرها ببدري.
لم تك غير شفق وفجر، حتى تولت وهي بكر الدهر.

وقال الشريف الرضي:

يا ليلة كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر.

وقال آخر:

يا ليلة جمعتنا بعد فرقتنا فبت من صبحها لما بدا، فرقا.

لما خلوت بآمالي بها، قصرت وكاد يسبق فيها فجرها الغسقا.

وقال آخر:

يا رب ليل سرور خلته قصراً يعارض البرق في أفق الدجى برقا.
قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه فجره الشفقا.

وقال القاضي السعيد بن سناء الملك:

يا ليلة الوصل، بل يا ليلة العمر! أحسنت، إلا إلى المشتاق، في القصر.
يا ليت زيد بحكم الوصل فيك لنا ما طول الهجر من أيامك الأخر.
أو ليت نجمك لم تقفل ركائبه، أو ليت صبحك لم يقدم من السفر.
أو ليت لم يصف فيك الشرق من غبش، فذلك الصفو عندي غاية الكدر.
أو ليت كل من الشرقين ما ابتسما، أو ليت كلاً من النسرين لم يطر،
أو ليت كنت كما قد قال بعضهم: ليل الضرير فصبحي غير منتظر.
أو ليت فجرك لم ينفر به رشئي، أو ليت شمسك ما جارت على قمري.
أو ليت قلبي وطرفي تحت ملك يدي فزدت فيه سواد القلب والبصر.
أو ليت ألقى حبيبي سحر مقلته على العشاء فأبقاه بلا سحر.
أو ليت كنت سألتيه مساعدة فكان يحبوك بالتكحيل والشعر.
كأنها حين ولت قمت أجذبها فانقد في الشرق منها الثوب من دبر.
لا مرحبا بصباح جاءني بدلا من غرة النجم أو من طلعة القمر!

وقال عبد الله بن المعتز:

يل ليلة ما كان أط يبها سوى قصر البقاء!
أحييتها فأمتها وطويتها طي الرداء.
حتى رأيت الشمس تت لو البدر في أفق السماء.
فكأنه وكأنها قد حان من خمر وماء.

وقال المهلبي:

قد قصر الليل عند ألفتنا كأن حادي الصباح صاح به.

وقال آخر:

كأنما الليل راكب فرساً منهزماً والصباح في طلبه.

ما وصف به من الإشراق

فمن ذلك قول شاعر أندلسي:

رب ليل عمرته فيك خال من الفكر.

كثرت حوله الحجو ل وسارت به الغرر.

وقال أبو بكر الصنوبري:

يا ليلة طلعت بأسعد طالع تاهت على ضوء النهار الساطع.

بمحاسن مقرونة بمحاسن وبدائع موصولة ببدائع.

ضوء الشموع وضوء وجهك مازجاً ضوء العقار وضوء برق لامع.

فكأنما ألقى الدجى جلبابه وأراك جلباب النهار الساطع

ما وصف به من الظلمة

قال الله عز وجل: " أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ". فهذه أتم أوصاف الظلمة.

وقال مضرس بن ربعي:

وليل يقول الناس في ظلماته: سواء صحيحات العيون وعورها

كأن لنا منه بيوتاً حصينة مسوح أعاليها وساج كسورها

وقال أبو تمام:

إليك هتكنا جنح ليل كأنما قد اكتحلت منه البلاد بإثمد

وقال أبو نواس:

أبني لي: كيف صرت إلى حريمي، وجفن الليل مكتحل بقار

وقال العلوي الأصفهاني:

ورب ليل باتت عساكره تحمل في الجو سود رايات

لامعة فوقها أسنتها مثل الأزاهير وسط روضات

ومن رسالة لأبي عبد الله بن أبي الخصال. جاء منها: والليل زنجي الأديم، تبري النجوم؛ قد جللنا ساجه، وأغرقتنا أمواجه؛ فلا مجال للحظ، ولا تعارف إلا باللفظ؛ ولو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت، ولو خضبت به الشيبة ما نصلت.

تباشير الصباح

قال أبو محمد العلوي:

كأن اخضرار الجو صرح ممرد وفيه لآل لم تشن بثقوب.

كأن سواد الليل في ضوء صبحه سواد شباب في بياض مشيب.

وقال أبو علي بن لؤلؤ، الكاتب:

رب فجر كطلعة البدر جلى جنح ليل كطلعة الهجران،

زار في حلة النراة فولى الليل عنه في حلة الغربان.

وقال الخالديان:

وكأنما الصبح المنير وقد بدا باز أطار من الظلام غرابا

وقال النظام البلخي، من شعراء الخريدة:

فلاح الصبح مبتسم الثنايا وطار الليل مقصوص الجناح.

يطير غراب أو كاز الدياجي إذا ما حل بازي الصباح.

وقال تميم بن المعز:

وكأن الصباح في الأفق باز والدجى بين مخلبيه غراب.

وقال ابن وكيع:

غرد الطير فنبه من نعس. وأدر كأسك فالعيش خلس!
سل سيف الفجر من غمد الدجى وتعرى الصبح من ثوب الغلس.
وانجلى في حلة فضية ما بها من ظلمة الليل دنس.
وقال أبو مروان بن أبي الخصال:
لما رأيت الغرب قد غص بالدجى وفي الشرق من ثوب الصباح دلائل،
توهمت أن الغرب بحر أخوضه وأن الذي يبدو من الشرق ساحل.
وقال أسعد بن بليطة الأندلسي:
جرت بمسك الدجى كافورة السحر فغاب إلا بقايا منه في الطرر،
صبح يفيض وجنح الليل منغمس فيه كما غرق الزنجي في نهر.
قد حار بينهما في برزخ قمر يلوح كالشنف بين الخد والشعر.
وقال أحمد بن عبد العزيز القرطبي:
بتنا كأن حداد الليل شملتنا حتى بدا الصبح في ثوب سحولي.
كأن ليلتنا والصبح يتبعها، زنجية هربت قدام رومي.
وقال أبو نواس:
فقمت والليل يجلوه الصباح، كما جلا التبسم عن غر الثنيات.
وقال عبد الله بن المعتز:
قد أغتدي والليل في جلبابه كالحبشي فر من أصحابه.
والصبح قد كشر عن أنيابه كأنما يضحك من ذهابه.
وقال السري:
وشرد الصبح عنا الليل فاتضحت سطوره البيض في آياته السود.
وقال أبو فراس:
مددنا علينا الليل، والليل راضع إلى أن تردى رأسه بمشيب.
بحال ترد الحاسدين بغيظهم وتطرف عنا عين كل رقيب.
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه مبادى نصول في عذار خضيب.
وقال عبد الصمد بن بابك، شاعر اليتيمة:
واستهلت لمصرع الليل ورق ثاكلات،حدادها التطويق.
فتضاحكت شامتا وكأن الصبح جيب على الدجى مشقوق.
وقال أبو بكر الصنوبري:
وليلة كالرفرف المعلم محفوظة الظلماء بالأنجم.
تعلق الفجر بأرجائها، تعلق الأشقر بالادهم.
وقال السلامي، شاعر اليتيمة:
وقد خالط الفجر الظلام كما التقى على روضة خضراء ورد وأدهم.

وعهدي بها، والليل ساق ووصلنا عقار، وفوها الكأس أو كأسها الفم.
إلى بدرنا بالنجوم، وغربها، يفض عقود الدر والشرق ينظم.
ونبهت فتيان الصبوح للذة تلوح كدينار يغطيه درهم.
ومن رسالة للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، عفا الله عنه. حاء منها: فلما قضى الليل نحبه، وأرسل الصباح على دهمه شهبه؛ شمر الليل إزاره، ووضع النجم أوزاره؛ ونزح بالطيف طادرا، وظل وراء الصبح ناشدا؛ وفجر الفجر نهر النهار، واسترد البنفسج وأهدى البهار؛ فمواكب الكواكب منهزمة، وغرة الفجر كغرة مولاي مبتسمة.
ومما يدخل في هذا الباب، ما حكي عن أن بعض الأعراب تزوج بأربع نسوة، فأراد أن يختبر عقولهن. فقال إحداهن: إذا دنا الصبح فأيقظيني. فلما دنا الصبح، قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال: وما يدريك؟ قالت: غارت صغار النجوم وبقي أحسنها وأضوؤها وأكبرها، وبرد الحلي على جسدي، واستلذت باستنشاق النسيم. فقال لها: إن في ذلك دليلاً. ثم بات عند الثانية، فقال لها مثل مقالته للأولى. فلما دنا الصبح، أيقظته. فقال لها: وما يدريك؟ قالت: ضحكت السماء من جوانبها، ولم تبق نابتة إلا فاحت روائحها، وعيني تطالبني بإغفاءة الصباح. فقال لها: إن في ذلك دليلاً. ثم بات عند الثالثة، فقال لها مثل ذلك. فلما دنا الصبح، أيقظته. فقال لها: وما يدريك؟ فقالت: لم يبق طائر إلا غرد، ولا ملبوس إلا برد، وقد صار للطرف في الليل مجال، وليس
ذلك إلا من دنو الصباح. فقال لها: إن في ذلك لدليلاً. ثم بات عند الرابعة، فقال لها مثل ذلك. فلما دنا الصبح، قالت له: قم، فقد دنا الصبح! فقال لها: وما يدريك؟ قالت: أبت نفسي النوم، وطلبني فمي بالسواك واحتجت إلى الوضوء. فقال لها: أنت طالق، فإنك أقبحهن وصفا.
ما قيل في النهار
والنهار طبيعي، وشرعي.
فالطبيعي زمان بين طلوع نصف قرص من المشرق، وإلى غيابه في المغرب. والشرعي ما بين انفجار الفجر الثاني إلى غروب الشمس.
والفجر فجران: الفجر الكاذب، وهو بياض مستطيل؛ والفجر الصادق بياض مستطير. وقد وضعت العرب لساعات النهار أسماء، كما وضعت لساعات الليل، وهي: الذرور، ثم البزوغ، ثم الضحى، ثم الغزالة، ثم الهاجرة، ثم الزوال، ثم الدلوك، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم الصبوب، ثم الحدور، ثم الغروب. ويقال أيضاً: البكور، ثم الشروق، ثم الإشراق، ثم الرأد، ثم الضحى، ثم المتوع، ثم الهاجرة، ثم الأصيل، ثم العصر، ثم الطفل، ثم العشى، ثم الغروب.
ذكر ذلك معا أبو جعفر النحاس.

وحكى الثعالبي في كتاب فقه اللغة- عن حمزة بن الحسن- قال: وعليه عهدتها: الشروق، ثم البكور، ثمالغدوة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الرواح، ثم العصر، ثم القصر، ثم الأصيل، ثم العشي، ثم الغروب.
وكانت العرب العاربة تسمى أ يام الأسبوع بأسماء غير هذه التي تتداولها الناس في وقتنا هذا، وهي: " أول" وهو الأحد "أهون" وهو الاثنان" جبار" وهو الثلاثاء "دبار" وهو الأربعاء "مؤنس" وهو الخميس "عروبة" وهو الجمعة " شيار" وهو السبت. نظم ذلك شاعرفقال:

أؤمل أن أعيش وأن يومي لأول أو لأهون أو جبار،
أو التالي دبار وإن أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار.

الأيام التي خصت بالذكر
منها: الأيام المعلومات. وهي عشر ذى الحجة، وفيها يوم التروية. وهو اليوم الثامن سمى بذلك لأنهم يرتوون من الماء لما بعده، لأن منىً لا ماء بها. الأيام المعدودات. هي أيام التشريق. وعدتها ثلاثة بعد يوم النحر. سميت بذلك لأنهم كانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحي في الشمس والهواء، لئلا تفسد. أيام العجوز. ويقال فيها الأيام الأعجاز، وهي سبعة: أولها السادس والعشرون من شباط من شهر الروم؛ والخامس من برمهات من شهور القبط. وهي لا تخلو من رياح وبرد. وسميت بالعجوز: لأنها في عجز الشتاء.
يوم عبيد، مثل لليوم المنحوس. كان عبيد بن الأبرص قد تصدى للنعمان في يوم بؤسه الذي لا يفلح من لقيه فيه، كما لا يخيب من لقيه في يوم نعيمه، قال أبو تمام:

من بعد ما ظن الأعادي أنه سيكون لي يوم كيوم عبيد.

يوم المطر. يضرب مثلا في كفر النعمة. وذلك أنه حكى عن المعتمد على الله ابن عباد صاحب إشبيلية أنه خلا بزوجته الرميكية في مجلس أنس، والزمان فيه قيظ. فتمنت عليه غيما ومطرا. فأمر بمجامر العنبر والعود والند، حتى انعقد الدخان كالضباب،ثم أمر برش صحن المجلس بماء الورد من أعلاه. وحصل بينهما بعد ذلك نبوة، فقالت له: ما رأيت معك يوم سرور قط! فقال لها:ولا يوم المطر؟ صدق رسول الله"صلى الله عليه وسلم" في قوله: إنهن يكفرن العشير.
يوم وهو اليوم العاشر من محرم. ورد في فضله أحاديث كثيرة. ويقال إن نوحا "عليه السلام" ركب السفينة فيه فصامه وأمر من معه بصومه. وصح أن رسول الله" صلى الله عليه وسلم" لما هاجر، رأى اليهود في المدينة صياماً في هذا اليوم. فسألهم عنه، فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله تعالى فيه موسى وبني إسرائيل، وأغرق فرعون وقومه. فنحن نصومه شكرا لله تعالى. فقال" عليه الصلاة والسلام" : أنا أحق بأخي موسى.ثم أمر منادياً فنادى: من أكل فليمسك، ومن لم يأكل فليصم! وفيه قتل الحسين بن علي" رضي الله عنه".

أيام أصحاب الملل الثلاث
يوم الجمعة، للمسلمين. وسبب اتخاذهم له أنه اليوم الذي أتم الله به خلق العالم، وأوجد فيه أبا البشر آدم" عليه السلام" وفيه قبض، وفيه يكون النفخ في الصور، وفيه الصعق، وفيه الساعة التي لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها حاجة إلا قضاها له.
يوم السبت، لليهود. وحجتهم على اتخاذهم له أن الله تعالى ابتدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، وأن يوم السبت يوم فراغ ودعةٍ. ولهم في ذلك أقوال كثيرة. يوم الأحد، للنصارى. ذكر في سبب اتخاذهم له أن الله" سبحانه وتعالى" ابتدأ فيه بخلق الأشياء.
ما يتمثل به في ذكر النهار
يقال: أطول من يوم الفراق. أضوأ من نهارٍ. أنور من وضح النهار.
ويقال: يذهب يوم الهم ولا يشعر به. ما يوم حليمة بسر. من ير يوماً ير به. يوم السرور قصير.
اليوم خمر وغداً أمر. اليوم عيش وغداً خيش. اليوم فعل وغداً ثواب.يوم لنا ويوم علينا.
لكل قومٍ يوم.
ومن أنصاف الأبيات:
وهل يخفى على الناس النهار وفي الليالي والأيام معتبر
واله ما أمكن يوم صالح إن يوم الشر لا كان عتيدا!
وقال آخر:
أمام!لا أدري، وإن سألت: ما نسك يوم جمعةٍ من سبت.
وقال آخر:
وأيام! الشرور مقصصات وأيام السرور تطير طيرا.
وقال آخر:
لا تحملن هموم أيام على يومٍ، لعلك أن تقصر عن غده
وصف النهار وتشبيهه
فمن ذلك قول شاعر،يصفه بالقصر:
ويوم سرورٍ قد تكامل وصفه سوى قصرٍ، لا عيب فيه سواه!
وعهدي به كالرمح طولاً، فعندما هززناه للهو التقى طرفاه.
وقال آخر:
بأبي من نعمت منه بيومٍ، لم يزل للسرور فيه نمو!
يوم لهوٍ، قد التقى طرفاه فكأن العشى فيه غدو
وقال آخر:
لم ينتشر فلق الإصباح من قصر فيه إلى أن طواه فيلق الغسق.
ولم يكن ملتقى جفنى أخي رمدٍ كملتقى طرفيه: الصبح والشفق.
وما تناولت فيه الرطل مصطبحا إلا أعادته منى كف مغتبق.
وقال آخر:

لله يوم مسرة أضوا وأقصر من ذبالة!
لما نصبنا للمنى فيه بإشراك حباله.
طار النهار مروعاً وفيه وأجفلت الغزالة!

وقال آخر:

حث الكؤوس! فذا يوم به قصر، وما به من تمام الحسن تقصير.
صحو وغيم، يروق الطرف حسنهما: فالصحو فيروزج، والغيم بلور.

وقال آخر:

ويوم كحلي الغانيات سلبته حلي الربا حتى انثنى.
سبقت إليه الشمس، والشمس غضة وصبغ الدجى من مفرق الفجر ناصل.

ومن كلام ابن برد الأصغر الأندلسي:

اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره؛ وتقنعت شمسه، وتعطر نسيمه؛ وعندما بلل هزج، وساق غنج؛ وسلافتان: سلافة أخوان، وسلافة دنان؛ قد تشاكلتا في الطباع، وازدوجنا في إثارة السرور. فأخرق إلينا سرادق الدجن تجد مرأي لم يحسن إلا لك ولا يتم إلا بك.

ومن كلامه أيضاً:

لم نلتق منذ عرينا مركب اللهو، وأخلينا ربع الأنس، وقصصنا جناح الطرب، وعبسنا في وجوه اللذات. فإن رأيت أن تخف إلى مجلس قد نسخت فيه الرياحين بالدواويين، والمجامر والمحابر، والأطباق، بالأوراق، وتنازع المدام، بتنازع الكلام؛ واستماع الأوتار، باستماع الأخبار؛ وسجع البلابل، بسجع الرسائل؛ كان أشحذ لذهنك، وأرشد لرأيك. مما وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات

قد وضع أهل هذا الفن لمعرفة درجات الليل وساعات النهار آلات يستدلون بها على معرفة ما مضى من ذلك وما بقي، ولتحرير المواقيت: كالاصطرلاب، والطرجهارة والبنكام.
ووصف الشعراء والفضلاء ذلك بأوصاف، نذكر منها إن شاء الله تعالى ما نقف عليه فأما الاصطرلاب وما قيل فيه. فقال أبو طالب، عبد السلام المأموني:

وشبيه بالشمس يسترق الأنوار من نور جرمها في في خفاء.
فتراه أدري وأعلم منها، وهو في الأرض، بالذي في السماء.

وقال أيضاً :

وعالم بالغيب من غير ما سمع ولا قلب، ولا ناظر!
يقابل الشمس فيأتي بما ضمنها من خبر حاضر.
كأنه ناجته لما بدا لعينها بالفكر والخاطر.
وألهمته على ما يحتوي عليه صدر الفلك الدائر.

وقال أبو إسحاق الصابي، وقد أهداه في مهرجان إلى مخدومه:

أهدى إليك بنو الآمال واجتهدوا في مهرجان جديد أنت تبليه.
لكنك عبدك إبراهيم حين رأى سمو قدرك عن شيء يساميه.

لم يرض بالأرض يهديها إليك فقد أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه!

وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز:

أفضل ما استصحب النبيل فلا يعدل به في المقام والسفر،
جرم إذا ما التمست قيمته جل عن التبر وهو من صفر.
مختصر وهو إذ تفشته عن ملح العلم غير مختصر.
ذو مقلة تستنير ما رمقت عن صائب اللحظ صادق النظر.
تحملته وهو حامل فلك لو لم يدر بالبنان لم يبدر.
مسكنه الأرض وهو ينبئنا عن جل ما في السماء من خبر.
أبدعه رب فكرة بعدت في اللطف عن إن تقاس بالفكر.
فاستوجب الشكر والثناء به من كل ذي فطنة من البشر.
فهو لذي اللب شاهد عجب على اختلاف العقول والفطر.

وكتب أبو الفرج الببغاء يصف اصطرلابا أهداه فقال:

آثرتك - أيدك الله - ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها؛ ومرشد الفكر ومناره، وميزان الحسن ومعياره؛ ونافي الشك ومزيله، وشاهد الأثير ودليله؛ مصور الحكمة وممثلها، ومقسم البروج ومعدلها؛ وموقف النجوم ومسيرها، وجامع الأقاليم ومدبرها؛ مرآة الحبك، وصورة الفلك؛ وأمين الكواكب، وحد المشارق والمغارب؛ مما اخترعت العقول تسطيحه، وأتقن الحساب تصحيحه وتمارت الفطن في ترتيبه، واصطلحت بالحكماء على تركيبه؛ فأوضحت بالنقش تقسيمه، وأبانت بالكتابة رسومه؛ إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصر متفرق الأمور في خرق عضادته؛ واحتوى على قطر الشمال والجنوب، واطلع باللطف على خفيات الغيوب؛ الملقب بالاصطرلاب، الفاصل بين الخطأ والصواب.

وقال أبو نصر الكاتب فيه: قطب الزمن ومداره، زميزان الفلك ومعياره؛ وأساس الحكمة وموضوعها، وتفصيل الفطنة ومجموعها؛ الناطق في صمته، الموفي على نعمه؛ مظهر السر المكنون، المخبر بما كان وما يكون؛ ذو شكل مقمر ومستدير، لون مشمس مستنير؛ ومنطقه محيطة بأجزائه؛ وخطوط معدلة على أغضائه؛ وكتابة مطبقة بتدويره، ورموزبائحة بضميره؛ متقابل الأهداف، متكامل الأوصاف؛ بحجرة مسكونة، وصفائح مصونة؛ وقد مومق، وباب مطروق؛ للعلم فتحه ورتاجه، وعليه طريقه ومنهاجه؛ إذا انتصب قال فحمد، وإذا اضطجع عني فلم يفد؛ صفري الانتساب ذهي الإهاب؛ يخترق الأنوار من نقابه، ويستخدم الشمس فيحسابه؛ يجمع الشرق والغرب في صفحته، ويستره الحامل في راحته؛ رافعه ينظر من تحته، وأخباره تسند عن خرته.

ومما قيل في طرجهارة. قال أبو الفتح كشاجم يصفها:

روح من الماء في جسم من الصفر مؤلف بلطيف الحسن والفكر.
له على الظهر أجفان محجرة مقلة دمعها جار على قدر.

تنشا له حركات في اسافله كأنها حركات الماء في الشجر.
وفي أعاليه حساب مفصلة للناظرين بلا ذهن ولا نظر.
إذا بكى، دار في أحشائه فلك حافي المسير؛ وإن، لم يبكي لم يدر.
ومخرج لك بالأجزاء ألطفها من النهار، وقوس الليل في السحر.
مترجم عن مواقيت يخبرنا عنها فيوجد فيها صادق الخبر.
تقضي به الخمس في وقت الوجوب وإن غطي على الشمس أو غطي على القمر.
وإن سهرت لأسباب تؤرقني عرفت مقدار ما ألقي من السهر.
محدد كل ميقات، تخيره ذوو التخير للأسباب والسفر.

الباب الثاني:

من القسم الثالث من الفن الأول
في الشهور والأعوام

نذكر في هذا الباب الشهور العربية واشتقاقها، والشهور العجمية، ودخول بعضها في بعض، والسنين القمرية، والشمسية، والنسيء ومعناها، وما يجري هذا المجرى، مما لمحناه أثناء المطالعة بعون الله تعالى وقدرته. وإياه أسأل التوفيق بكرمه ومنته!

الشهور وما قيل فيها

الشهر إما طبيعي، وإما اصطلاحي. فالطبيعي هو مدة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى وقال آخرون: هو عود شكل القمر في جهة بعينها إلى شكله الأول.

وأما الاصطلاحي، فهو مدة قطع الشمس مقدار برج من بروج الفلك. وذلك ثلاثون يوماً، وثلث عشر يوم بالتقريب. وهذا مذهب الروم، والسريان، والفرس، والقبط. والله سبحانه وتعالى أعلم!

الأشهر العربية

"وما يختص بها من القول"

والأشهر العربية قسمان: قسم غير مستعمل، وهو الذي وضعته العرب العاربة؛ وقسم مستعمل، وهو الذي وضعته العرب المستعربة، وكلا القسمين موضوع على الأشهر القمرية. فأما القسم غير المستعمل، فهو أسماء كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها، وهي: مؤتمر، ناجر، خوان، صوان "ويقال فيه: بصان"، رنى، أيدة، الأصم، عادل، ناطل، واغل، ورنة، برك. وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة. والدي ذكرناه منها هو المشهور، ويدل عليه قول الشاعر:

بمؤتمر وناجر ابتدأنا وبالخوان يتبعه البصان
ورنى ثم يده تليه تعود أصم صم به السنان

وعادله وناطله جميعاً وواغله فهم غرر حسان
وورنة بعدها برك فتمت شهور الحول يعقدها البنان
وأما القسم المستعمل، فهو هذه الأسماء المشهورة:
المحرم، صفر، الربيعان، الجماديان، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.
قيل: وإنما وضعوا هذه الأسماء على هذه الشهور لاتفاق حالات وقعت في كل شهر فسمي الشهر بها عند ابتداء الوضع فسموا المحرم محرماً: لأنهم أغاروا فيه فلم ينجحوا، فحرموا القتال فيه، فسموه محرما.وسموا صفراً: لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم إلى الغارات. وقيل: لأنهم كانوا يغيرون على الصفرية، وهي بلاد. وشهرا ربيع: لأنهم كانوا يخصبون فيهما بما أصابوا في صفر، الربيع الخصب. وجماديان: من جمد الماء لأن الوقت الذي سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً فيه لبرده. ورجب: لتعظيمهم له.
والترجيب التعظيم. وقيل: لأنه وسط السنة فهو مشتق من الرواجب، وهي. أنامل الأصبع الوسطى. وقيل: إن العود رجب النبات فيه أي أخرجه، فسمي بذلك. وكذلك تشعب العود في الشهر الذي يليه فسمي شعبان. وقيل: سمي بذلك لتشعبهم فيه للغارات.
وسمي رمضان، أي شهر الحر. مشتق من الرمضاء. وشوال، من شالت الإبل أذنابها إذا حالت، أو من شال يشول إذا ارتفع. وذو القعدة: لقعودهم فيه عن القتال إذ هو من الأشهر الحرم. وذو الحجة، لأن الحج اتفق فيه قسمي به. ويقال أن أو من سماها بهذه الأسماء، كلاب بم مرة.
ومن مجموع هذه الأشهر أربعة حرم، ثلاثة سرد، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم؛ وواحد فرد، وهو رجب. هذا ما رواه الأصمعي عن العرب في ترتيب الأشهر الحرم. واختار غيره أن الواحد الفرد هو المحرم؛ والسرد رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، لتكون الأربعة أشهر في سنة واحدة. وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنها أربعة أشهر لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة، وهي: شهرا ربيع، وشهر رجب، وشهر رمضان. فهذه الشهور العربية وما قيل فيها.
وأما شهور اليهود فأسماؤها: تشرى، مرحشوان، كسلاو، طابات، شباط، آذار، نيسان، أيار، سيوان، تموز، آب، أيلول. وأما الشهور العجمية فإنها شمسية. وهي أقسام، بحسب الأمم التي تنسب إليهم. فمنها الشهور القبطية، وتنسب لدقلطيانوس. وكل شهر منها ثلاثون يوماً. وما فضل من عدد أيام السنة الشمسية جعلوه كبيساً في آخر شهر منها وهي: توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونه، أبيت، مسرى.

وأول توت يكون النوروز. وفي أول يوم من كيهك تدخل الأربعينيات، وهي أربعون يوم باردة تؤذن بالشتاء. وفي الرابع من برمودة تدخل الخمسينات، وهي أيام حارة تؤذن بالصيف. ومنها شهور السريان والروم. وهما متفقان في العدد والدخول. والسريانيون ينسبون شهورهم لأغسطش، وهو قيصر. وهذه الشهور منها ما ينقص عن الثلاثين، ومنها ما يوفيها، ومنها ما يزيد عليها. وفيها يقول الكيزاني:

شهور الروم ألوان: زيادات ونقصان.
فتشرينهم الثاني، وأيلول ونيسان.
ثلاثون، ثلاثون، سواء، وحزيران.
وأشباط ثمان بعد عشرين له شان.

والسبعة التي تركها، كل شهر منها يزيد يوما.
ووضع لها بعض المغاربة ضابطاً، وهو حروف معجمة ومهملة يجمعها في أربع كلمات، وهي: فاز رجل ختم بحج. وجمعها آخر في مثل ذلك فقال: غاب عنك زيد فحج. فما كان معجما فهو أحد وثلاثون يوما، وما كان مهملاً فهو ثلاثون، والشهر الموافق للألف ثمانية وعشرون.
وأول سنة السريان تشرين الأول. ودخوله رابع بابه، ويوافق أكتوبر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم تشرين الثاني، ودخوله في الخامس من هتور، ويوافقه نومبر من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما، ثم كانون الأول، ودخوله في الخامس من كيهك، ويوافقه دجبنر من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم كانون الثاني، ودخوله في السادس من طوبه، ويوافقه ينير من شهور الروم، وهو أول سنتهم، وعدد أيامه أحد وثلاثون يوما؛ ثم شباط، ودخوله في السابع من أمشير ويوافقه فبرير من شهور الروم، وهو ثمانية وعشرون يوماً وربع يوم؛ ثم آذار، ودخوله في الخامس من برمهات، ويوافقه مارس من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم نيسان ودخوله في السادس من برمودة، ويوافقه أبريل من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم أيار، ودخوله في السادس من بشنش، ويوافقه مايه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم حزيران، ودخوله في السابع من بؤونة، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما؛ ثم تموز، ودخوله في السابع من أبيب، ويوافقه يوليه من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم آب؛ ودخوله في الثامن من مسرى، ويوافقه أغشت من شهور الروم، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ثم أيلول، ودخوله في الرابع من توت، ويوافقه ستنبر من شهور الروم، وهو ثلاثون يوما.
ونظم بعض الشعراء أرجوزة في مداخلة الشهور، فقال:

وإن حفظت أشهر السريان وكنت من ذاك على بيان.
ورمت منها عمل المنازل فإنها معلومة التداخل.
أيلول يبدو رابعاً من توت هذا بحكم النظر المثبوت.
وهكذا تشرين وهو الأول من بابه أربعة تكمل.

أول تشرين الأخير يدخل ومن هتور خمسة يا رجل.
أول كانون وأعنى الأولا وخامس من هيكل تعدلا.
أول كانون الأخير سادس من طوبة فيها يقيس القائس.
ومن شباط أول يوافي سابع أمشير بلا خلاف.
أول آذار حساب صادق من برمهات خامساً يوافق.
برمودة سادسه وأول نيسان وفق ليس عنه معدل.
أول أيار بغير لبس يوافق السادس من بشنس.
بؤونة وافق منه سابعه أول حزيران لما يتابعه.
أول تموز على الترتيب يدخل في السابع من أبيب.
أول آب ثامن من مسرى، العلم بالمرء اللبيب أحرى.

قال بعض الشعراء في مثل ذلك:

متى تشأ معرفة التداخل من أول فهي الشهور في المنازل.
فعد من توت بلا تطويل أربعة فهي ابتدا أيلول.
وبابه كذلك من تشرين الأول السابق في السنين.
والخامس المعدود من هاتور أول تشرينهم الأخير.
أول كانون بغير دلسة إذا نقصت من كيهك خمسة.
وطوبة إن مر منه ستة أتاك كانون الأخير بغته.
ومن شباط أول يوافق سابع أمشير، حساب صادق.
أول آذار إذا جعلته لبرمهات خامساً وجدته.
أول نيسان لدى التجريد السادس المعدود من برمود.
ومثله أيار مع بشنس واحدة مقرونة بخمس.
أما حزيران فيحسبونه من أول السابع من بؤونة.
كذلك السابع من أبيب أول تموز بلا تكذيب.
أول آب عند من يحصل ثامن مسرى ذاك مالا يجهل.

وأما شهور الفرس، فهي موافقة لشهور القبض في العدد. لأن كل شهر منها ثلاثون يوما، إلا أبان ماه، وهو الشهر الثامن، فإنهم يضيفون إليه خمس أيام لأجل النسيء، ويسمونها الاندركاه. ولكل يوم من أيام الشهر اسم خاص، يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة موكل به. فأسماء المشهور منها: افريدون ماه "وهو رأس سنتهم"، أرديهشت ماه، حرداد ماه، تير ماه، ترد ماه، بر ماه، مهر ماه، أبان ماه، ادر ماه، دى ماه، بهمن ماه، اسفندر ماه. ويعنون بقولهم ماه القمر.

قول بعض الشعراء:

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار.

ما يختص بالسنة من القول

وما جاء من اختلاف الأمم في ابتدائها وانتهائها، والفرق بين السنة والعام. أما الفرق بين السنة والعام، فإنهم يقولون سنة جدب و عام خصب. قال الله تعالى: "ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات". وقال تعالى: "ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون".

والصحيح أنهما اسمان موضوعان على مسمى واحد. قال الله تعالى: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما".
والسنة طبيعية، واصطلاحية. فالطبيعية قمرية؛ وأولها استهلال القمر في غرة المحرم، وانسلاخها بسراره في ذي الحجة. وهي اثنا عشر شهرا، وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمس وسدس يوم تقريباً؛ ويتم من هذا الخمس والسدس في ثلاث سنين يوم، فتصير السنة في الثالثة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً. ويبق شيء يتم منه ومن خمس اليوم وسدسه المستأنف في السنة يوم واحد إلى أن يبقى الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة. وتسمى تلك السنة كبائس العرب.
وأما السنة الاصطلاحية فإنها شمسية، وعدد أيامها عند سائر الأمم ثلثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم. فتكون زيادتها على السنة العربية عشرة أيام ونصف يوم وربع يوم وثمن يوم وخمساً من خمس يوم.
ويقال: إنهم كانوا في صدر الإسلام يسقطون عند رأس كل اثنتين وثلاثين سنة عربية سنةً، ويسمونها الازدلاف. لأن كل ثلاث وثلاثين سنة قمرية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً. وذلك تحرزهم من الوقوع في النسيء في عصرنا هذا بين كتاب التصرف التحويل. لأنا نحول السنة الخراجية إلى الهلالية، ولا يكون ذلك إلا بأمر السلطان.
وسنة العالم - على ما اتفق عليه المنجمون - هي من حين حلول الشمس رأس الحمل، وهو الاعتدال الربيعي. ومنهم من يجعل أولها من حين حلول الشمس رأس الميزان، وهو الاعتدال الخريفي. وابتداء سنة القبط قطع الشمس اثنتي عشرة درجة من السنبلة، وابتدؤا بفعل ذلك في زمن اغسطش، وهو قيصر الأول على ما ذكره أصحاب الزيجات.
وأما السر يانيون، فأول سنتهم عند قطع الشمس من الميزان ست عشرة درجة. النسيء ومذهب العرب فيه
يقال إن عمرو بن لحي، وهو خزاعة - ويقال اسمه عمرو بن عامر الخزاعي - هو أول من نسأ الشهور، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وجعل الوصيلة، والحامي. وهو أول من دعا الناس إلى عبادة هبل، قدم به معه من هيت.
ومعنى النسيء أنهم ينسئون المحرم إلى صفر، ورجب إلى شعبان. وكان جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم الأشهر الحرم الأربعة، وكانوا يتحرجون فيها من القتال. وكان قبائل منهم يستبيحونها فإذا قاتلوا في شهر حرام، حرموا مكانه شهراً من أشهر الحل، ويقولون نسيء الشهر.
وحكى ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية "على صاحبها أفضل الصلاة والسلام" أن أول من نسأ الشهور على العرب، وأحل منها ما أحل، وحرم ما حرم القلمس. وهو حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة.

ثم قام بعده ولده عباد، ثم قام بعد عباد ابنه قلع، ثم قام بعد قلع ابنه أمية، ثم قام بعد أمية ابنه عوف، ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جناده، وعليه ظهر الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها، اجتمعت عليه بمنى، فقام فيها على جمل، وقال بأعلى صوته: "اللهم إني لا أخاف ولا أعاف، ولا مرد لما قضيت! اللهم إني أحللت شهر كذا "ويذكر شهراً من الأشهر الحرم، وقع اتفاقهم على شن الغارات فيه" وأنسأته إلى العام القابل "أي أخرت تحريمه" وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقي!" وكانوا يحلون ما أحل، ويحرمون ما حرم. وفي ذلك يقول عمرو بن قيس بن جذل الطعان، من أبيات يفتخر:

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل، نجعلها حراما؟

وحكى السهيلي في كتابه المترجم بالروض الأنف أن نسيء العرب كان على ضربين: أحدهما تأخير المحرم إلى صفر لحاجاتهم إلى شن الغارات وطلب الثأر، والثاني تأخير الحج عن وقته تحرياً منهم للسنة الشمسية. فكانوا يؤخرونه في كل عام أحد عشر يوما حتى يدور الدور في ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته. فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه فوافق حجه في ذي القعدة، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام القابل فوافق عود الحج إلى وقته في ذي الحجة كما وضع أولاً. فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجه، خطب فكان مما قال في خطبته صلى اله عليه وسلم: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. يعني أن الحج قد عاد في ذي الحجة.

السنة التي يضرب بها المثل

يضرب المثل: بعام الجراد. كان سنة ثمان من الهجرة.

عام الحزن. وهي لسنة التي مات فيها أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وخديجة رضي الله عنها وهي سنة عشر من الهجرة، وكان موتها بعده بثلاثة أيام وقيل بسبعة.

عام الرمادة. كان سنة ثماني عشرة من الهجرة، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.أصاب الناس فيه قحط حتى صارت وجوههم في لون الرماد من الجوع. وقيل: كانت الريح تسفي تراباً كالرماد لشدة يبس الأرض، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى في التاريخ.

عام الرعاف. كان سنة أربع وعشرين من الهجرة، سمي بذلك لكثرة ما أصاب الناس فيه من الرعاف.

عام الجماعة. كان سنة أربعين من الهجرة. فيه سلم الحسن بن علي رضي الله عنهما الخلافة لمعاوية، فاجتمعت الكلمة فيه.

عام الجحاف. كان سنة ثمانين من الهجرة، وقع بمكة سيل عظيم ذهب بالإبل وعليها الحمول.

عام الفقهاء. وهو سنة أربع وتسعين من الهجرة. فيها مات علي بن الحسين زين العابدين، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم وسعيد بن المسيب، وعروة بن

الزبير، وعطاء بن يسار، وسعيد بن زيد بن ثابت. وفيه قتل الحجاج بن يوسف الثقفي سعيد بن جبير.
سنيات خالد. يضرب بها المثل في الجدب. وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث المعروف بأبي مطير. كان قد تولى لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين توالى القحط فيها حتى أجلى أهل البوادي.
سنة عشر ومائة. مات فيها فريتان في الزهد: الحسن البصري ومحمد بن سيرين، وقريتان في الشعر: جرير والفرزدق.
سنة ست وخمسين وثلثمائة. مات فيها جماعة من الملوك، وهم: شمكير بن زياد صاحب طبرستان وجرجان، ومعز الدولة بن بويه، وكافور الأخشيدي صاحب مصر، ويقفور ملك الروم، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدولة ابن حمدان ممدوح المتنبي، والحسن بن فيرزان صاحب أذربيجان.

الباب الثالث

من القسم الثالث من الفن الأول:

الفصول

في الفصول وأزمنتها

وفصول السنة أربعة: الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء. ولكل فصل منها ثلاثة بروج، وثلاثة أشهر، وسبع منازل، وموافقة من الطبائع الأربع.
فأما فصل الربيع، وهو عند العرب الصيف، فطبعه حار رطب. ودخوله عند حلول الشمس برج الحمل، والثور، والجوزاء. وهذه البروج عندهم تدل على الحركة. وله من السن الطفولية والحداثة، ومن الرياح الجنوب، ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة، ومن القوى القوة الجاذبية، ومن الأخلاط الدم، ومن الكواكب القمر والزهرة، ومن المنازل بعض الفرغ المقدم والفرغ المؤخر، والرشاء، والسرطان، والبطين، والثريا، والدبران، وبعض الهقعة. وعدد أيامه أربعة وستون يوما.
وحلول الشمس في الثاني عشر من آذار، ويوافقه مارس من شهور الروم، وفي السادس عشر من برمهات من شهور القبط، وفي العشرين من اسفندار ما من شهور الفرس. وإذا حلت الشمس برج الحمل، اعتدل الليل والنهار، وصار كل واحد منهما اثنتي عشرة ساعة. ثم يأخذ النهار في الزيادة، والليل في النقصان.
وفي هذا الفصل تتحرك الطبائع، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء. فيطلع النبات وتزهر الأشجار وتورق، وتهيج الحيوان في للسفاد، وتذوب الثلوج، وتنبع العيون، وتسيل الأودية.

وصف فصل الربيع
وتشبيهه نظماً ونثراً.

فمن ذلك ما قاله الصنوبري:

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا جاء الربيع، أتاك النور والنور.
فالأرض ياقوتة، والجو لؤلؤة، والنبت فيروزج، والماء بلور.
وقال آخر:
اشرب هنيئاً قد أتاك زمان متعطر، متهلل، نشوان!
فالأرض وشي، والنسيم معنبر، والماء راح، والطيور قيان.
وقال الثعالبي:
أظن الربيع العام قد جاء زائراً ففي الشمس بزازاً، وفي الريح عطارا.
وما العيش إلا أن تواجه وجهه وتقضي بين الوشي والمسك أوطارا.
وقال آخر:
وفصل فصل الربيع الرياض عقوداً ورصع منها حليا.
وفاخر بالأرض أفق السماء فحلى الثرى بنجوم الثريا.
وقال الحسن بن وهب:
طلعت أوائل للربيع فبشرت نور الرياض بجدة وشباب!
وغدا السحاب يكاد يسحب في الثرى أذيال أسحم حالك الجلباب.
فترى السماء إذا أجدر بابها فكأنما التحفت جناح غراب.
وترى الغصون إذا الرياح تناوحت ملتفة كتعانق الأحباب.
وقال بعض فضلاء أصفهان في وصف فصل الربيع من رسالة ذكرها العماد الأصفهاني في الخريدة:
أما بعد. فإن الزمان جسد وفصل الربيع روحه، وسر حكمة إلهية وبه كشفه ووضوحه؛ وعمر مقدور وهو الشبيبة فيه، ومنهل جم وهو نميره وصافيه؛ ودوحة خضرة وهو ينعها وجناها، وألفاظ مجموعة وهو نتيجتها ومعناها؛ فمن لم يستهو طباعه نسيم هوائه، ولم يدرك شفاء دائه في صفاء دوائه؛ لم يذق لطعم حياته نفعاً، ولم يجد لخفض حظه من أيامه رفعاً.
وأما فصل الصيف، فإن طبيعته الحرارة واليبس، ودخوله عند حلول الشمس برج السرطان والأسد والسنبلة.
وهذه البروج تدل على السكون. وله من السن الشباب؛ ومن الرياح الصبا؛ ومن الساعات الرابعة والخامسة والسادسة؛ ومن القوى القوة الماسكة؛ ومن الأخلاط المرة الصفراء؛ ومن الكواكب المريخ، والشمس؛ ومن المنازل بعض الهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة والطرف والجبهة "وهي أربعة عشر يوما" والخراتان وبعض الصرفة. وتنزل الشمس في برج السرطان في الرابع عشر من حزيران. وعدد أيامه ثلاثة وتسعون يوماً، ويوافقه ينير من شهور الروم؛ وفي العشرين من بؤونة، وإذا حلت الشمس برج السرطان، أخذ الليل في الزيادة، والنهار في النقصان. والله أعلم.
ذكر ما قيل في وصف فصل الصيف وتشبيهه نظما ونثرا
فمن ذلك ما قاله ذو الرمة:

وهاجرةٍ حرها واقد نصبت لحاجبها حاجبي.
تلوذ من الشمس أطلائها لياذ الغريم من الطالب.
وتسجد للشمس حربائها كما يسجد القس للراهب.

وقال مسكين الدارمي.

وهاجرة ظلت كأن ظباءها إذا ما اتقتها بالقرون سجود.
تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها كما لاذ من حرالسنان طريد.

وقال ابن الفقيسي:

في زمان يشوي الوجوه بحر، ويذيب الجسوم لو كن صخراً.
لا تطير النسور فيه إذا ما وقفت شمسه وقارب ظهراً.
ويود الغصن النضير به لو أنه من لحائه يتعرى.

وقال أيضاً:

يا ليلة بت بها ساهداً من شدة الحر وفرط الأوار.
كأنني في جناحها محرم لو أن للعورة مني استتار.
وكيف لا أحرم في ليلة سماؤها بالشهب ترمي الجمار؟

وقال آخر:

ويوم سموم خلت أن نسيمه ذوات سموم للقلوب لوداغ،
ظللت به أشكو مكابدة الهوى فكوزي ملآن ومائي فارغ.

وقال محمد بن أبي الثياب، شاعر اليتيمة:

وهاجرة تشوي الوجوه كأنها إذا لفحت خدي نار توهج.
وماء كلون الزيت ملح كأنه بوجدي يغلي أو بهجرك يمزج.

وقال الثعالبي:

رب يوم هواؤه يتلظى فيحاكي فؤاد صب متيم.
قلت إذ صك حره حر وجهي: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم!

ومما وصف به من النثر قول بعضهم:

أوقدت الظهيرة نارها، وأذكت أوارها؛ فأذابت دماغ الضب، وألهبت قلب الصب، هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت بنيران الفراق، حر تهرب له الحرباء من الشمس، وتستجير بمراكب الرمس، لا يطيب معه عيش، ولا ينفع معه سرج ولا خيش؛ فهو كقلب المهجور، أو كالتنور المسجور.

وأما فصل الخريف، فإن طبعه بارد يابس؛ ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان والعقرب والقوس. وهذه البروج تدل على الحركة؛ وله من السن الكهولة؛ ومن الرياح الشمال؛ ومن الساعت السابعة والثامنة والتاسعة؛ ومن القوى القوة الهاضمة؛ ومن الأخلاط المرة السوداء؛ ومن الكواكب زحل؛ ومن المنازل بعض الصرفة والعواء و السماك والغفر والزبانيان والقلب وبعض الشولة؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوماً؛ ويكون حلول الشمس الميزان في الخامس عشر من أيلول، ويوافقه ستمبر من شهور الروم، وفي الثامن عشر من توت.

وفي هذا الفصل يبرد الهواء، ويتغير الزمان، ويغبر وجه الأرض، ويصفر ورق الشجر، وتهزل البهائم، وتموت الهوام، وتنحجر

الحشرات، وتطلب الطير المواضع الدفئة، وتصير الدنيا كأنها كهلة مدبرة.
ويقال: فصل الخريف ربيع النفس كما أن فصل الربيع ربيع العين. والله أعلم.
ذكر ما قيل في وصف فصل الخريف وتشبيه نظما ونثرا.
فمن ذلك ما قاله الصنوبري، عفا الله عنه:
ما قضى في الربيع حق المسرا ت مضيع زمانه في الخريف.
نحن منه على تلقي شتاءٍ يوجب القصف أو وداع مصيف.
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف.
يرعد الماء منه خوفاً إذا ما لمسته يد النسيم الضعيف.
وقال عبد الله بن المعتز:
طاب شرب الصبوح في أيلول! برد الظل في الضحى والأصيل!
وخبت جمرة الهواجر عنا، واسترحنا من النهار الطويل.
وخرجنا من السموم إلى بر د نسيم، وطيب ظل ظليل،
وشمال تبشر الأرض بالقطر كذيل الغلالة المبلول.
فكأنا نزداد قربا إلى الجنة في كل شارق وأصيل.
ووجوه البقاع تنتظر الغيث انتظار المحب رد الرسول.
تبتغي غلة لتعمل روضا بكثير من الحيا أو قليل.
وقال آخر:
اشرب على طيب الزمان فقد حدا بالصيف من أيلول أسرع حاد.
وأشمنا بالليل برد نسيمه فارتاحت الأرواح في الأجساد.
وأفاك بالأنداء قدام الجيا فالأرض للأمطار في استعداد.
كم في ضمائر تربها من روضة بمسيل ماء أو قرارة واد.
تبدو إذا جاد السحاب بقطره فكأنما كانا على ميعاد.
وقال آخر:
لا تضع للوم إن اللوم تضليل واشرب ففي الشرب للأحزان تحليل.
فقد مضى القيظ واجتثت رواحله، وطابت الراح لما آل أيلول.
وليس في الأرض نبت يشتكي يبساً إلا وناظره بالطل مكحول.
وقال آخر:
خذ بالتدثر في الخريف فإنه مستوبل، ونسيمه خطاف.
يجري مع الأيام جري نفاقها لصديقها ومن الصديق يخاف.
ومما وصف به النثر:
قال أبو إسحاق الصابي يصفه:
الخريف أصح فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتداليين، المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زينتها؛ وأطلقت السماء حوافل أنوائها، وتأذنت بانسكاب مائها؛ وصارت الموارد،كمتون المبارد؛ صفاء

من كدرها، وتهدباً من عكرها؛ واطراد من نفحات الهواء، وحركات الريح الشجواء؛ واكتسب الماشية وبرها القشيب، والطائر ريشه العجيب.
وقال ابن شبل:
كل ما يظهر في الربيع نواره، ففي الخريف تجني ثماره، فهو الحاجب أمامه، والمطرق قدامه. وقال ضياء الدين ابن الأثير الجزري عن الخريف يفتخر على فصل الربيع: أنا الذي آتي بذهاب السموم، وإياب الغيوم، واعتصار بنات الكروم، وتكاثر ألوان المشروب والمطعوم؛ وفي يترقرق صفاء الأنهار، فتشبه القوابل بالأسحار، وأيامي هي الذهبيات وتلك نسبة كريمة النجار؛ ومن ثمراتي ما لا تزال أمهاته حوامل، وأوراقه نواضر وغيره ذوابل، وقد شبه بالمصابيح وشبهت أغصانه بالسلاسل.
ولقد أنصف من قال:
محاسن للخريف بهن فخر على زمن الربيع، وأي فخر!
به صار الزمان أمام برد يراقب نزحه وعقيب حر.
وأما فصل الشتاء، فإن طبعه بارد رطب، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدي والدلو والحوت.
وهذه البروج تدل على السكون. وله من السن الشيخوخة؛ ومن الرياح الدبور؛ ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة؛ ومن القوى القوة الدافعة؛ ومن الأخلاط البلغم؛ ومن الكواكب المشتري وعطارد؛ ومن المنازل بعض الشولة والنعائم والبلدة وسعد الذابح وسعد السعود وسعد الأخبية وبعض الفرغ المقدم؛ وعدد أيامه تسعة وثمانون يوماً.
ويكون حلول الشمس برأس الجدي في الثالث عشر من كانون الأول، وإذا حلت الشمس ببرج الجدي يشتد البرد، ويخشن الهواء، ويتساقط ورق الشجر، وتنجحر الحيوانات، وتضعف قوى الأبدان، وتكثر الأنواء، ويظلم الجو، وتصير الدنيا كأنها عجوز هرمة قد دنا منها الموت.
وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: توقوا البرد في اوله، وتلقوه في آخره، فإنه يفعل في الأبدان كفعله في الأشجار: أوله يحرق وآخره يورق.
ذكر ما قيل في وصف فصل الشتاء وتشبيهه.
فمن ذلك ما قاله جرير شاعر الحماسة:
في ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب في ظلمائها ظلما.
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الدنيا.
وقال ابن حكينا البغدادي:
البس إذا قدم الشتاء بروداً وافرش على رغم الحصير لبودا.
الريق في اللهوات أصبح جامداً والدمع في الآماق صار برودا.
وإذا رميت بفضل كأسك في الهوا عادت عليك من العقيق عقودا.

وترى على برد المياه طيورها تختار حر النار والسفودا.
يا صاحب العودين لا تهملهما أوقد لنا عوداً وحرك عودا.
وقال آخر:
ويومنا أرواحه قرة تخمش الأبدان من قرصها.
يوم تود الشمس من برده لو جرت النار إلى قرصها!
وقال عبد الله بن المعتز:
قد منع الماء من اللّمس وأمكن الجمر من المس.
فليس نلقى غير ذي رعدة ومسلم يسجد للشمس!
وقال آخر:
ليس عندي من آلة البرد إلا حسن صبري، ورعدتي، وقنوعي.
فكأني لشدة البرد هر يرقب الشمس في أوان الطلوع.
وقال ابن سكرة الهاشمي، عفا الله تعالى عنه ورحمه:
قيل: ما أعدت للبر د وقد جاء بشدة؟
قلت: دراعة برد تحتها جبة رعده.
وقال أبو سعيد المخرومي:
إذا كنت في بلدة نازلاً وحل الشتاء حلول المقيم،
فلا تبرزن إلا أن ترى من الصخور يوماً صحيح الأديم.
فكم زلقة في حواشي الطريق ترد الثياب بخزي عظيم.
وكم من لئيم غدا راكباً يحب البلاء لماشٍ كريم.
وقال الصاحب بن عباد:
أنى ركبت فكف الأرض كاتبة على ثيابي سطوراً ليس تنكتم.
فالأرض محبرة، والحبر من لثقٍ والطرس ثوبي، ويمني الأشهب القلم.
قال أبو علي كاتب بكر شاعر اليتيمة:
يا بلدة أسلمني بردها وبرد من يسكنها للقلق.
لا يسلم الشاتي بها من أذى من لثقٍ، أو دمق، أو زلق.
ومما وصف به نثراً قول بعضهم:
إذا حلتالشمس برج الجدي مد الشتاء رواقه، وحل نطاقه، ودبت عقارب البرد لاسبة، ونفع مدخور الكسب كاسبه.
ومن رسالة لابن أبي الخصال، جاء منها.
الكلب قد صافح خيشومه ذنبه، وأنكر البيت وطنبه؛ والتوى التواء الحباب، واستدار استدارة الغراب؛ وجلده الجليد، وضربه الضريب وصعد أنفاسه الصعيد؛ فحماه مباح مباح، ولا هرير، ولا نباح، والنار كالصديق، أو كالرحيق، كلاهما عنقاء مغرب، أو نجم مغرب.
وقال بعضهم:
برد يغير الألوان، وينشف الأبدان، ويجمد الريق في الأشداق، والدمع في الآماق، برد حال بين الكلب وهريره، والأسد وزئيره، والطير وصفيره، والماء وخريره.

وقيل لبعضهم: أي البرد أشد؟ فقال: إذا دمعت العينان، وقطر النخران، وتلجلج اللسان، واصطكت الأسنان.ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة في أرجوزة فقال:

عندي في وصف الفصول الأربعة مقالة مقالة تغني اللبيب مقنعة.

ما قيل في فصل الصيف

أما المصيف، فاستمع ما فيه من فطن يفهم سامعيه.
فصل من الدهر إذا قيل حضر، أذكرنا بحرة نار سقر.
ظل فيه القلب مقشعراً والأرض تشكو خره المضرا.
أوله فيه ندى منغص كأنه على القلوب يقنص.
يلصق منه الجلد بالثياب ويعلق التراب بالأثواب.
حتى إذا ما طردته الشمس وفرحت بأن يزول النفس.
فتحت النار لنا أبوابها وشب فيها مالك شهابها.
حر يحيل الأوجه الغرانا حتى ترى الروم به حبشانا.
يعلو به الكرب ويشتد القلق وتنضج الأبدان فيه بالعرق.
تبصره فوق القميص قد علا حتى ترى مبيضه مصندلا.
إن كان رثا، زاد في تمزيقه؛ أو مستجدا، جد جبل زيقه.
ثم يعيد الماء ناراً حامية يزيد في كرب القلوب الصاديه.
شاربه يكرع في حميم كأنه من ساكني الجحيم.
ينسه ما يلقى من التهابه أن يحمد الله على شرابه.
حتى إذا أعيا، انقضى نهاره وأرخيت من ليله أستاره،
تحركت في جنحه دواهي سارية، وأنت عنها لاهي.
من عقرب يسعى كسعي اللص سلاحها في إثره كالشص.
وحية تنقث سما قاتلا تزود الملسوع حتفا عاجلا.
تبصر ما بجلدها من الرقش كوجنة مصفرة فيها نمش.
لو نهشت بالناب منها الخضرا، لنثرت منه الحياة نثرا.
فلا تقل إن جاء يوماً أهلا فلعنة الله عليه فضلا.

ما قيل في فصل الخريف

حتى إذا زال، أتى الخريف: فصل بكل سوأة معروف.
أهونه يسرع في حل الجسد وهو كطبع الموت يبس وبرد.
يجني على الأجسام من آفاته، وأرضه قرعاء من نباته.
لا يمكن الناس اتقاء شره ولا خلاف برده وحره.
تبصره مثل الصبي الأرعن من كثرة العشاق والتلون.
فأنت منه خائف على حذر لأنه يمزج بالصفو الكدر.
أحسن ما يهدي لك النسيما يقلبه في ساعة سموما.
وهو على المعدود من ذنوبه خير من من الصيف على عيوبه.

ما قيل في فصل الشتاء

حتى إذا ما أقبل الشتاء جاءتك منه غمة عمياء.
لو أنه روحٌ، لكان فدما أو أنه شخص لكان جهما.
يلقاك منه أسد يزير له وعيد وله تحذير.
يأتيك في أيامه رياح ليس على لاعنها جناح.
حراكها ليس إلا سكون تضر بالأسماع والعيون.

يحدث من أفعالها الزكام هذا إذا ما فاتك الصدام.
ثم يليها مطر مداوم كأنه خصم لنا ملازم.
يقطعنا بعضاً عن الطريق وعن قضاء الحق للصديق.
وربما خر عليك السقف فإن عفا عنك أتاك الوكف.
وإن أردت في النهار الشربا فيه، فقد قاسيت خطباً صعبا.
واحتجت أن توقد فيه نارا تطير نحو الحدق الشرارا.
يترك مبيض الثياب أرقطا يحكي السعيدي لك المنقطا.
وبعد ذا تسدد النقابا من خوفه وتغلق الأبوابا.
نعم، وترخى دونه الستورا حتى ترى صباحه ديجورا.
وإن أردت الشرب في الظلام عاقك عن تناول المدام.
حسبك أن تدنس في اللحاف من خشية البرد على الأطراف.
ورعده يشغل عن كل عمل ويؤثر النوم ويستحلي الكسل.
حتى إذا جئت إلى الرقاد، نمت على فرش من القتاد.
إن البراغيث عذاب مزعج لكل قلب ولجلد ينضج.
لا يستلذ جلدك المضاجعا كأنما أفرشه مباضعا.
تنح فصلاً فوق ما ذممته لو أنه يظهر لي قتلته.
حتى إذا ما هو عنا بانا وزال عنا بغضه لا كانا!

ما قيل في فصل الربيع

جاء إلينا زمن الربيع فجاء فصل حسن الجميع.
لبرده وحره مقدار لم يكتنف حدهما إكثار.
عدل في أوزانه حتى اعتدل وحمد التفصيل منه والجمل.
نهاره في أحسن النهار في غاية الإشراق والاسفار.
تضحك فيه الشمس من غير عجب كأنها في الأفق جام من ذهب.
وليله مستلطف النسيم مقوم في أحسن التقويم.
لبدره فضل على البدور في حسن إشراق وفرط نور.
كجامة البلور في صفائها أذابت الجراد في نقابها.
كأنها إذا دنت من بدره جوزاؤه قبل طلوع فجره.
رومية حلتها زرقاء في الجيد منها درة بيضاء.
هذا وكم تجمع من أمور إطراء مطريها من التقصير.
فيه تظل الطير في ترنم حاذقة باللحن لم تعلم.
غناؤها ذو عجمة لا يفهمه سامعه وهو على ذا يغرمه.
من كل دبسي له رنين وكل قمري له حنين.
في قرطق أعجل أن يوردا خاط له الخياط طوقاً أسودا.
تبصره منه على الحيزوم كمثل عقد سبج منظوم.
هذا وفيه للرياض منظر يفشالسربفي سره مايضمر.
سر نبات حسنه إعلانه إذا سواه زانه كتمانه.
فيه ضروب لنبات الغض يحكي لباس الجند يوم العرض.
من نرجس أبيض الثغور كأنه مخانق الكافور.
وروضة تزهر من بنفسج كأنها أرض من الفيرزوج.
قد لبست غلالة زرقاء وكايدت بلونها السماء.
يضحك منها زهر الشقيق كأنه مداهن العقيق.

مضمنات قطعاً من السبج قد أشرقت من احمرار ودعج.
كأنما المحمر في المسود منه إذا لاح عيون الرمد.
وارم بعينيك إلى البهار فإنه من أحسن الأزهار.
كأنه مداهن من عسجد قد سمرت في قضب الزبرجد.
فانهض إلى اللهو ولا تخلف فلست في ذلك بالمنعف.
واشرب عقاراً طال فينا كونها يصفر من خوف المزاج لونها.
دونك هذي صفة الزمان مشروحة في أحسن التبيان!
وارض بتقليدي فيما قلته فإنني أدرى بما وصفته.

الباب الرابع:

من القسم الثالث من الفن الأول

مواسم الأمم وأعيادها

في ذكر مواسم الأمم وأعيادها، وأسباب اتخاذهم لها، وما قيل في ذلك والذي أورده في هذا الباب، هو مما وقفت عليه أثناء مطالعتي للكتب الموضوعة فيه، ونقلته منها لما تعذر على من أتلقاه من فيه. وضمنته أعياد المسلمين، والفرس والنصارى، واليهود.

ذكر الأعياد الإسلامية

والأعياد الإسلامية التي وردت بها الشريعة اثنان: عيد الفطر، وعيد الأضحى. والسبب في اتخاذهما، ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قدم لمدينة، ولأهلها يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقلوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل قد بدلكم خيرا منهما، يوم الفطر، ويوم الأضحى. فأول ما بدأ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة. وفيها كان عيد الأضحى.

وعيد ابتدعته الشيعة، وسموه عيد الغدير. وسبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم غدير خم، والغدير على ثلاثة أيام من الجحفة بسرة الطريق. قالوا: وهذا الغدير تصب فيه عين، وحوله شجر كثير ملتف بعضها ببعض. وبين الغدير والعين مسجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم. واليوم الذي ابتدعوا فيه هذا العيد هو الثامن عشر من ذي الحجة، لأن المؤاخاة كانت فيه في سنة عشرة من الهجرة، وهي حجة الوداع. وهم يحيون ليلتها بالصلاة، ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال. وشعارهم فيه لبس الجديد، وعتق الرقاب، وبر الأجانب، والذبائح.

وأول من أحدثه معزي الدولة أبو الحسن علي بن بويه، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره في سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة.

ولما ابتدع الشيعة هذا العيد واتخذوه من سننهم، عمل عوام السنة يوم سرور نظير عيد الشيعة في سنة تسع وثمانين

وثلثمائة. وجعلوه بعد عيد الشيعة بثمانية أيام، وقالوا: هذا يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. وأظهروا في هذا اليوم الزينة، ونصب القباب، وإيقاد النيران.

ذكر أعياد الفرس
وأعياد الفرس كثيرة جداً. وقد صنف علي بن حمزة الأصفهاني فيها كتاباً مستقلاً ذكر فيه أعيادهم، وسبب اتخادهم لها، وسنن ملوكهم فيها. وقد رأيت أن أقتصر على المشهور منها، وهي ثلاثة أعياد: النيروز، والمهرجان، والسدق.
فأما النيروز، فهو أعظم أعيادهم وأجلها. يقال أن أول من اتخذه جمشيد أحد ملوك الفرس الأول. ويقال فيها جمشاد،ومعنى جم القمر وشاد الشعاع والضياء؛ وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن طهومرت لما هلك، ملك بعد جمشاد. فسمى اليوم الذي ملك فيه نوروز، أي اليوم الجديد.
ومن الفرس من يزعم أن النيروز اليوم الذي خلق الله عز وجل فيه النور، وأنه كان معظم القدر عند جمشاد. وبعضهم يزعم أنه أول الزمان الذي ابتدأ فيه الفلك في الدوران.
ومدته عندهم ستة أيام، أولها اليوم الأول من شهر أفريدون ماه، الذي هو أول شهور سنتهم. ويسمون اليوم السادس النوروز الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس ثم ينتقلون إلى مجاس أنسهم مع خواصهم.
وحكى ابن المقفع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتي الملك من الليل رجل جميل الوجه، قد أرصد لما يفعله. فيقف على الباب حتى يصبح. فإذا أصبح دخل علىالملك من غير استئذان. فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟ ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأي شيء وردت؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور، واسمي المبارك، ومن قبل الله أقبلت، والملك السعيد أردت، وبالهناء والسلام وردت، ومعي السنة الجديدة. ثم يجلس ويدخل بعد ه رجل معه طبق من فضة، وفيه حنطة، وشعير، وجلبان، وحمص، وسمسم، وأرز "من كل واحد سبع سنابل وتسع حبات" وقطعة سكر، ودينار ودرهم جديدان.
فيضع الطبق بين يدي الملك. ثم تدخل عليه الهدايا. ويكون أول من يدخل عليه وزيره، ثم صاحب الخراج، ثم صاحب المعونة، ثم الناس على طبقاتهم ومراتبهم. ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب، موضوع في سلة. فيأكل منه ويطعم من حضره. ثم يقول: هذا يوم جديد، من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد، يحتاج أن نجدد فيه ما أخلق من الزمان، وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء. ثم يخلع على وجوه دولته ويصلهم ويفرق فيهم ما حمل إليه من الهدايا.

وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار في ليلته، ورش الماء في صبيحته. وفي ذلك يقول المعوج:

كيف ابتهاجك بالنيروز يا سكني؟ وكل ما فيه يحكيني وأحكيه!
فناره كلهيب النار في كبدي! وماؤه كتوالي عبرتي فيه!

وقال آخر:

نورز الناس ونورز ت، ولكن بدموعي!

وذكت نارهم، والنار ما بين ضلوعي!

وأما المهرجان، فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول من شهور السريان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس. وهذا الأوان وسط زمان الخريف، وفيه يقول بعض الشعراء:

أحب المهرجان لأن فيه سروراً للملوك ذوي السناء،
وباباً للمصير إلى أوان تفتح فيه أبواب السماء.

وهو ستة أيام. ويسمى اليوم السادس المهرجان الأكبر. قال المسعودي: وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم، أنهم كانوا يسمون شهورهم بأسماء ملوكهم. وكان لهم ملك يسمى مهر، يسير فيهم بالعنف والعسف. فمات في نصف الشهر الذي يسمونه مهر ماه، فسمي ذلك اليوم مهرجان. وتفسيره نفس مهر ذهبت وهذه لغة الفرس الأول. وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حفاظ وجان الروح.

وقد نظم عبيد الله بن عبد الله بن ظاهر ذلك، فقال:

إذا ما تحقق بالمهرجا ن من ليس يعرف معناه، غاظا.
ومعناه أن غلب الفرس فيه فسموه للروح حقاً حفاظا.

ويقال إنه إنما عمل في عهد أفريدون الملك، وأن معنى هذا الاسم إدراك الثأر وسبب اتخاذهم له، أن بيوراسف "وهو الضحاك" ، ويقال له أزدهاق ذو الحيتين والأفواه الثلاثة والأعين الستة، الداهي الخبيث المتمرد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غير دين المجوسية. وجاء إبليس في صورة خادم، فقبل منكبيه، فنبت فيهما حيتان، فكان يطعمهما أدمغة الناس. فأجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصبهان، يقال له كابي، ويقال فيه كابيان. ودعا الناس إلى قتاله، فاجتمع له خلق كثير. فشخص الضحاك لقتاله، فهاب كثرة جمعه وفر منه. فاجتمع الناس على كابي ليملكوه عليهم، فأبى ذلك وقال: ما أنا من أهل الملك، وأخرج صبياً من واد جمشاد، يسمى أفريدون وملكه، فأطاعه الناس فيه وملكوه عليهم.

وخرج أفريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جده فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيدا، وسماه المهرجان. ويقال أن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بابك، أول ملوك الفرس الساسانية.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يفضل المهرجان على النيروز:

أخا الفرس إن الفرس تعلم إنه لأطيب من نيروزها

مهرجانها:

لإدبار أيام يغم هواؤها وإقبال أيام يسر زمانها.

وكان مذهب الفرس فيه أن يدهن ملوكهم بدهن البان تبركاً، وكذلك عوامهم، وأن يلبس القصب والوشى، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها، ويكون أول من يدخل عليه الموبذان بطبق فيه أترجة،وقطعة سكر، ونبق، وسفرجل، وعناب، وتفاح، وعنقود عنب أبيض، وسبع طاقات آس قد زمزم ثم يدخل الناس على طبقاتهم بمثل ذلك.

وكان أردشير، وأنوشروان يأمران بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان والنيروز من أنواع الملابس والفرش، فتفرق كلها في الناس على مراتبهم، ويقولان: إن الملوك تستغني عن كسوة الصيف في الشتاء، وعن كسوة الشتاء في الصيف، وليس من أخلاقهم أن يخبؤوا كسوتهم في خزائنهم ويساووا العامة في فعلها.

وزعم بعض أصحاب التاريخ أن النيروز عملته الفرس قبل المهرجان بألفي سنة وخمسمائة سنة.

وأما السدق، فإنه يعمل من شهر بهمن ماه. ويسمى هذا اليوم عندهم أبان روز، لأن لكل يوم من أيام الشهر عندهم اسما.

ويقال في سبب اتخاذهم له: أن فراسياب لما ملك، سار إلى بلاد بابل وأكثر فيها الفساد، وخرب العمران. فخرج عليه دق بن طهماسب، وطرده عن مملكته إلى بلاد الترك. وكان ذلك في يوم أبان روز. فاتخذ الفرس هذا اليوم عيدا، وجعلوه ثالثاً ليوم النيروز، والمهرجان. ويقال أيضاً في سبب اتخاذهم له: إن الأب الأول وهو عندهم كيومرت، لما كمل له مائة ولد، زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم عرساً أكثر فيه من إشعال النار، فوافق ذلك الليلة المذكورة، واستسنه الفرس بعده.

وهم يوقدون النيران بسائر الأدهان، ويزيدون في الولوع بها، حتى أنهم يلقون فيها سائر الحيوانات.

وفي ذلك يقول ابن حجاج من أبيات يمدح بها عضد الدولة بن بويه:

مولاي يا من نداه يعدو ففات سبتا وليس يلحق.

ليلتنا حسنها عجيب بالقصف والعزف قد تحقق.

لنارها في السما لسان عن نور ضوء الصباح ينطق.

والجو منها قد صار جمرا والنجم منها قد كاد يحرق.

ودجلة أضرمت حريقا بألف نار وألف زورق.

فماؤها كلها حميم قد فار مما إلى وبقبق.

وقال أبو القاسم المطرز، في سدق عمله السلطان ملك شاه، أشعل فيه الشموع والنيران في السميريات بدجلة، وذلك في سنة أربع وثمانين وأربعمائة:

وكل نار العشاق مضرمة من نار قلبي أو من ليلة السدق.

نار تجلت بها الظلماء فاشتبهت بسدفة الليل فيها غرة الفلق!
وزارت الشمس فيها الليل واصطلحا على الكواكب بعد الغيظ والحنق.
مدت على الأرض بسطاً من جواهرها ما بين مجتمع وار ومفترق.
مثل المصابيح إلا أنها نزلت من السماء بلا رجم ولا حرق.
أعجب بنار ورضوان يسعرها ومالك قائم منها على فرق!
فيمجلس ضحكت روض الجنان له لما جلا ثغره عن واضح يقق.

ذكر أعياد النصارى القبط

وأعياد النصارى أربعة عشر عيدا: سبعة يسمونها كبارا، وسبعة صغارا فأما الكبار: فمنها عيد البشارة. ويعنون بها بشارة غبريال، وهو عندهم جبريل عليه السلام على ما يزعمون أنه بشر مريم ابنة عمران بميلاد عيسى عليهما السلام. وهم يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهورهم.

ومنها عيد الزيتونة. وهو عيد الشعانين، وتفسيره التسبيح. يعملونه في سابع أحد من صومهم. وسنتهم فيه أخرجوا بسعف النخل من الكنيسة. ويزعمون أنه يوم ركوب المسيح اليعفور في القدس،وهو الحمار، ودخوله صهيون وهو راكب، والناس يسبحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ومنها الفصح. وهو العيد الكبير عندهم يقولون أن المسيح قام فيه بعد الصلبوت بثلاثة أيام.

ومنها خميس الأربعين. ويسميه الشاميون السلاق. وهو الثاني والأربعون من الفطر. يزعمون أن المسيح عليه السلام تسلق فيه من بين تلاميذه إلى السماء من بعد القيام، ووعدهم إرسال الفارقليط وهو روح القدس.

ومنها عيد الخميس. وهو العنصرة يعمل بعد خمسين يوما من يوم القيام يقولون إن روح القدس حلت بالتلاميذ، وتفرقت عليهم ألسنة الناس، فتكلموا بجميع الألسنة، وتوجه كل واحد منهم إلى بلاد لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح.

ومنها النيلاد. وهو اليوم الذي ولد فيه المسيح. يقولون إنه ولد في يوم الاثنين فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد. وهم يوقدون فيه المصابيح بالكنائس ويزينونها. ويعمل في التاسع والعشرين كيهك من شهورهم.

ومنها الغطاس. ويعمل في الحادي عشرمن طوبة من شهورهم. ويقولون إن يحيى بن زكريا، وينعتونه بالمعمدان، غسل عيسى عليه السلام فيبحيرة الأردان، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة. والنصارى يغمسون أولادهم في الملء فيه، ووقته شديد البرد.

وأما الأعياد الصغار:
فمنها الختان. ويعمل فيسادس بؤنة، ويقولون إن المسيح ختن في هذا اليوم، وهو الثامن من الميلاد.
ومنها الأربعون. وهو عند دخول الهيكل يقولون إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمة "الهيكل" وبارك عليه. ويعمل في ثامن أمشير من شهورهم.
ومنها خميس العهد. ويعمل قبل الفصح بثلاثة أيام. وسنتهم فيه أن يأخذوا إناء ويملؤوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريك به أرجل سائر الناس.ويزعمون أن المسيح عيسى غليه السلام فعل مثل هذا بتلاميذه في مثل هذا اليوم، يعلمهم التواضع، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا، وأن يتواضع بعضهم لبعض. وعوام النصارى يسمون هذا الخميس خميس العدس،وهم يطبخون فيه العدس المقشور على ألوان، ويسميه أهل الشام خميس الأرز.
ومنها خميس البيض أيضاً. ويسميه أهل الأندلس خميس أبريل، وأبريل شهر من شهور الروم.
ومنها سبت النور. وهو قبل الفصح بيوم. يقولون إن النور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم، فتشتعل منه مصابيح كنيسة القيامة التي بالقدس. وليس كذلك، بل هو من تخييلات فعلها أكابرهم ليستميلوا بها عقول أصاغرهم. وقيل إنهم يعلقون القناديل في بيت المذبح، ويتحيلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على سائرها شريطاً من حديد في غاية الدقة، يدهنونه بدهن البلسان ودهن الزنبق. فإذا صلوا وحان وقت الزوال، فتحوا المذبح، فدخل الناس إليه، وقد أشعلت فيه الشموع. ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق بطرف الشريط الحديد النار فتسري عليه، فتقد القناديل واحدا بعد واحد بسبب الدهن.
ومنها حد الحدود. وهو بعد الفصح بثمانية أيام. يعمل أول أحد بعد الفطر، لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم. وفيه يجدون الآلات، والأثاث، واللباس، ويأخذون في المعاملات، والأمور الدنيوية.
ومنها التجلي. يقولون: إن المسيح عليه السلام، تجلى لتلاميذه بعد أن رفع، وتمنوا عليه أن يحضر لهم إيليا، وموسى، فأحضرهما لهم فيمصلى بيت المقدس، ثم صعد. ويعمل في ثالث عشر مسرى من شهورهم.
وعيد الصليب. وتزعم النصارى أن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية، وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى، وسائر كنائس الشام. وسبب ذلك - على ما نقله المؤرخون - أنه كان مجاور للبرجان، فضاق بهم درعا من كثرة غاراتهم على بلاده. فهم أن يصانعهم ويقرر لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفوا عنه. فرأى ليلاً في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ومعهم أعلام عليها صلبان، فحاربت البرجان

فهزموهم. فلما أصبح، عمل أعلاماً وصور فيها صلباناً، ثم قاتل بها البرجان فهزمهم.
وقيل أنه رأى في المنام صلبانا من نور في السماء، وقائل يقول له: اعمل مثل هذا على رؤوس أعلامك فإنك تنتصر. فلما أصبح، أمر بعمل صلبان من ذهب على رؤوس أعلامه فقاتل بها فنصر. فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم والدخول في دين النصرانية، وأن يقصوا شعورهم، ويحلقوا لحاهم. وإنما فعل ذلك بهم لأن رسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان من قبل يأمرونهم بالتعبد بدين النصرانية، فأعرضوا عنهم، ومثلوا بهم هذه المثلى نكالا بهم. ففعلوا ذلك تأسياً بهم.
ولما تنصر قسطنطين، خرجت أمه هيلاني إلى الشام، فبنت الكنائس، وسارت إلى بيت المقدس، فطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح، على ما يزعمون. وكانت مدفونة في مزبلة، فأخرجت منها، وفيها مواضع سبعة مسافرين فلما حملت إليها، غلفتها بالذهب وحملتها إلى ابنها. واتخذت يوم رؤيتها لها عيدا.
قال المسعودي: وذلك لأربع عشر ليلة خلت من أيلول، ووافق ذلك سبع عشرة ليلة خلت من توت من شهور القبط. وكان من مولد عيسى إلى اليوم الذي وجدت فيه الخشبة ثلثمائة وثمان وعشرون سنة.
وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في أخبار الروم في فن التاريخ، وهو في الجزء الثالث عشر من هذا الكتاب.

ذكر أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توارتهم خمسة: منها عيد رأس السنة. ويسمون رأس هيشا، أي عيد رأس الشهر وهو أول يوم من تشرين ينزل عندهم منزلة عيد الأضحية عندنا. ويقولون أن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح إسحاق ابنه عليهما السلام فيه، وفداه بذبح عظيم.
ومنها عيد صوماريا. ويسمى الكبور. وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم ويقتل من لم يصمه. ومدة الصوم خمس وعشرون ساعة، يبأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضي ساعة بعد غروبها في اليوم العاشر. ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار. وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد، ولا يوم الثلاثاء، ولا في يوم الجمعة. ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات، وظلم الرجل أخاه، وجحد ربوبية الله تعالى.
ومنها عيد المظلمة. وهو ثمانية أيام، أولها الخامس عشر من تشرين. وكلها أعياد، واليوم الأخير منها يسمى عراباً، وتفسيره شجر الخلاف. وهو أيضاً حج لهم. وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون، والخلاف،

وسائر الشجر الذي لا ينشر ورقه على الأرض. ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم في التية بالغمام .
ومنها عيد الفطير. ويسمونه الفصح. ويكون في الخامس عشر من نيسان. وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير. لأنها عندهم الأيام التي خلص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، وجعلوا يأكلون اللحم، والخبز الفطير، وهم بذلك فرحون. وفي آخر هذه الأيام غرق فرعون.
ومنها عيد الأسابيع، وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمل فيها الدين. ويسمى عيد العنصرة، وعيد الخطاب. ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. ويقولون أنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طورسينا. من حجوجهم، وحجوجهم ثلاثة: الأسابيع، والفطير، والمظلة. وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلا عن المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم، على ما يزعمون. واتخاذهم لهذا العيد في اليوم السادس من سيوان.
وعيد الفوز. وهو عيد أحدثوه، ويسمونه الفوريم. وذكروا في سبب اتخاذهم له بختنصر لما أجلى من كان ببيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم مدينة جي، وهي إحدى مدينتي أصفهان. فلما ملك أردشير بن بابك، سماه اليهود بالعبرانية أجشادوس. وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون. ولليهود يومئذ حبر يسمى بلغتهم مردوخاني. فبلغ أردشير أن له ابنة عم جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها. فطلب تزويجها منه، فأجابه
إلى ذلك. فتزوجها، وحظيت عنده، وصار مردوخاي قريباً منه. فأراد هيمون الوزير إصغاره حسداً، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير. فرتب مع نواب الملك في سائر الأعمال أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود. وعين لهم يوم وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم دون غيره، لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام ولد فيه وتوفي فيه. وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم، وبموت موسى عليه السلام.
فبلغ مردوخاي ذلك، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما بلغه، ويحضها على أعمال الحيلة في خلاصهم فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد، لفرب مردوخاي منه. فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أمان لليهود فاتخذوه عيدا. واليهود يصومون قبل ثلاثة أيام.
وهذا العيد عندهم عيد سرور، وله، وخلاعة، وهدايا يهديها بعضهم لبعض، ويصورون فيه من الورق صورة هيمون، ويملئون بطن الصورة نخالة ويلقونها في النار حتى تحترق.
وعيد الحنكة. وهو أيضاً مما أحدثوه. وهو ثمانية أيام، أولها ليلة الخامس والعشرون من كسلا. وهم يوقدون في الليلة الأولى

من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجاً؛ وفي الثانية سراجين؛ ويضعف ذلك في كل ليلة إلى ثمان ليال. فيكون في الثامنة ثمانية سرج.
وسبب اتخاذهم لهذا العيد، أن بع الجبابرة تغلب على البيت المقدس وقتل من كان فيه من بني إسرائيل، وافتض أبكارهم. فوثب عليه أولاد كأنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم.
فطلب اليهود زيتا لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا، وزعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثمانية ليال. فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسموه الحنكة، وهو مشتق من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعت الجبار

القسم الرابع من الفن الأول

في الأرض، والجبال، والبحار والجزائر، والأنهار، والعيون، والغدران. وفيه سبعة أبواب

الباب الأول

مبدأ خلق الأرض

قال الله تعالى: "أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً".
والأرض سبع، كم أن السماوات سبع. والدليل على ذلك قوله عز وجل: "والله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن".
واختلف فيها هل هي سبع متطابقات بعضها فوق بعض، أو سبع متجاورات؟ فذهب قوم إلى أن الله تعالى خلق سبع سماوات متطابقات متعاليات، وسبع أرضين متطابقات متسافلات؛ وبين كل أرض وأرض، كما بين كل سماء وسماء، خمسمائة عام.
وفسر بهذا قوله تعالى: "أو لم يرى الذين كفروا إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما". أي كانت سماء واحدة ففتقناهما سبعا.
قيل: ولكل أرض أهل وسكان مختلفون الصور والهيئات؛ ولكل أرض اسم خاص وذهب قوم إلى أنها سبع متجاورات متفرقات لا متطابقات. فجعلوا الصين أرضاً، وخراسان أرضاً، والسند والهند أرضاً، وفارس والجبال والعراق وجزيرة العرب أرضاً، والجزيرة والشام وبلاد أرمنية أرضاً، ومصر وأفريقية أرضاً، وجزيرة الأندلس وما جاورها من بلاد الجلاقة والأنكبردة وسائر طوائف الروم أرضاً.
ويقال: إنها كانت على ماء والماء على صخرة والصخرة على سنام ثور، والثور على كمكم، والكمك على ظهر حوت، والحوت على الماء، والماء على الريح، والريح على حجاب ظلمة، والظلمة على الثرى. وإلى الثرى انقطع على المخلوقين.
قال الله تعالى: "له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى".

وزعم آخرون أن تحت الأرض السابعة صخرة، وتحت الصخرة حوت، وتحت الحوت الماء، وتحتن الماء الظلمة، وتحت الظلمة الهواء،وتحت الهواء الثرى. وقد تقدم في الباب الأول من هذا الكتاب أن الرض مخلوقة من الزبد فلا فائدة في تكراره.

الباب الثاني

من القسم الرابع من الفن الأول

أسماء الأرض

في تفصيل أسماء الأرضين وصفاتها

في الاتساع، والاستواء، والبعد، والغلظ، والصلابة، والسهولة، والخزونة، والارتفاع، والانخفاض، وغير ذلك

قال الثعالبي: في كتابه المترجم بفقه اللغة وأسنده إلى أئمة اللغة.

إذا اتسعت الأرض ولم يتخللها شجر أو خمر، فهي الفضاء والبراز والبراح؛ ثم الصحراء والعراء، ثم الرهاء والجهراء. فإذا كانت مستوية مع الاتساع، فهي الخبت والجدد؛ ثم الصحصح والصردح؛ ثم القاع والقرقر؛ ثم القرق والصفصف.

فإذا كانت مع الاستواء والاتساع بعيدة الأكناف والأطراف؛ فهي السهب والخرق، ثم السبسب والسملق والملق. فإذا كانت مع الاتساع والاستواء والبعد لا ما فيها، فهي الفلات والمهمة؛ ثم التنوفة والفيفاء؛ ثم النفنف والصرماء. فإذا كانت مع هذه الصفات لا يهتدى فيها لطريق، فهي اليهماء والغطشاء. فإذا كانت تضل سالكها، فهي المضلة والمتيهة. فإذا لم يكن بها أعلام ولا معلم، فهي المجهل والهوجل. فإذا لم يكن بها أثر، فهي الغفل. فإذا كانت قفراء، فهي القي. فإذا كانت تبيد سالكها، فهي البيداء والمفازة كناية عنها. فإذا لم يكن فيها شيء من النبت، فهي المرت والمليع. فإذا لم يكن فيها شيء، فهي المروراة والسبروت والبلقع. فإذا كانت الأرض غليظة صلبة، فهي الجبوب، ثم الجلد، ثم العزاز، ثم الصيداء، ثم الجدجد.

فإذا كانت صلبة يابسة من غير حصى، فهي الكلد، ثم الجعجاع. فإذا كانت غليظة ذات حجارة ورمل، فهي البرقة والأبرق، فإذا كانت ذات حصى، فهي المحصاة والمحصبة. فإذا كثيرة الحصى، فهي الأنعز والمعزاء. فإذا اشتملت عليها كلها حجارة سود، فهي الحرة واللابة. فإذا كانت الأرض مطمئنة، فهي الجوب والغائط؛ ثم الهجل والهضم. فإذا كانت مرتفعة، فهي النجد والنشز. فإذا جمعت الأرض والارتفاع والصلابة والغلظ، فهي المتن والصمد، ثم القف والفدفد والقردد

فإذا كان ارتفاعها مع اتساع، فهي اليفاع. فإذا كان طولها في السماء مثل البيت، وعرض ظهرها نحو عشرة أذرع، فهي التل؛ وأطول وأعرض منها الربوة والرابية؛ ثم الأكمة؛ ثم الزبية؛ وهي التي لا يعلوها الماء وبها ضرب المثل في قولهم: بلغ السيل

الزبى؛ ثم النجوة، وهي المكان الذي تظن أنه نجاؤك؛ ثم الصمان، وهي الأرض الغليظة دون الجبل.
فإذا ارتفعت عن موضع السيل وانحدرت عن غلظ الجبل، فهي الخيف. فإذا كانت الأرض لينة سهلة من غير رمل، فهي الرقاق والبرث، ثم الميثاء والدمثة. فإذا كانت طيبة التربة كريمة المنبت بعيدة عن الأحساء والنزور،فهي العذاة. فإذا كانت مخيلة للنبت والخير فهي الأريضة. فإذا كانت ظاهرة لا شجر فيها ولا شيء يختلط بها، فهي القراح والقرواح. فإذا كانت مهيأة للزراعة، فهي الحقل والمشارة والدبرة. "فإذا لم تهيأ للزراعة، فهي بور". فإذا لم يصبها المطر، فهي الفل والجرز.
فإذا كانت غير ممطورة وهي بين أرضين ممطورتين، فهي الخطيطة. فإذا كانت ذات ندي ووخامة، فهي الغمقة. فإذا كانت ذات سباخ، فهي السبخة. فإذا كانت ذات وباء، فهي الوبئة والوبيئة. فإذا كانت كثيرة الشجر، فهي الشجراء والشجرة. فإذا كانت ذات حيات، فهي المحواة. فإذا كانت ذات سباع أو ذئاب، فهي المسبعة والمذأبة.

تفصيل أسماء التراب وصفاته
قال الثعالبي رحمه الله تعالى: الصعيد، تراب وجه الأرض.
والبوغاء، والدقعاء، التراب الرخو الرقيق الذي كأنه ذريرة.
والثرى، التراب الندي: وهو كل تراب لا يصير طيناً لازباً إذا بل.
المور، التراب الذي تطيره الريح فتراه على وجوه الناس وجلودهم وثيابهم "يلتزق لزوقاً". "والهابي، الذي دق وارتفع".
السافياء، التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح. النبيثة، التراب الذي يخرج من البئر عند حفرها.
الراهطاء والداماء، التراب الذي يخرجه اليربوع من حجره ويجمعه. الجرثومة، التراب الذي يجمعه النمل عند قريته.
العفاء، التراب الذي يعفي الآثار. وكذلك العفر. السماد، التراب الذي يسمد به النبات. فإذا كان مع السرقين، فهو الدمال.

تفصيل أسماء الغبار وأوصافه
النقع والعكوب، الغبار الذي يثور من حوافر الخيل وأخفاف الإبل. العجاج، الغبار الذي تثيره الريح. الرهج والقسطل، غبار الحرب. الخيضعة، غبار المعركة. العثير، غبار الأقدام. المنين ما تقطع منه.

تفصيل أسماء الطين وأوصافه
قال: إذا كان الطين حر يابساً، فهو الصلصال. فإذا مطبوخاً، فهو الفخار. فإذا كان علكاً لاصقاً، فهو اللازب.
فإذا غيره الماء وأفسده، فهو الحمأ. "وقد نطق القرآن بهذه الأسماء الأربعة". فإذا كان رطباً، فهو الثأطة والثرمطة والطثرة. فإذا كان رقيقاً فهو الرداغ. فإذا كان ترتطم فيه

الدواب، فهو الوحل. وأشد منه الردغة والرزغة. وأشد منها الورطة تقع فيها الغنم فلا تقدر على التخلص منها؛ ثم صارت مثلاً لكل شدة يقع فيها الإنسان. فإذا كان حراً طيباً علكاً وفيه خضرا، فهو الغضراء. فإذا كان مخلوطا بالتبن، فهو السياع. فإذا جعل بين اللبن، فهو الملاط.

تفصيل أسماء الرمال
قال: العداب، ما استرق من الرمل. الحبل، ما استطال منه. اللبب، ما انحدر منه. الحقف، ما اعوج منه. الدعص، ما استدار منه. العقدة، ما تعقد منه. السقط، ما جعل يتقطع ويتصل منه. النهبورة، ما أشرف منه. التيهور، ما اطمأن منه. الشقيقة، ما انقطع وغلظ منه. الكثيب والنقا، ما احدودب وانهال منه. العاقر، مالا ينبت شيئاً منه. الهدملة، ما كثر شجره منه. الأوعس، ما سهل ولان منه. الرغام، ما لا منه. وليس هو الذي يسيل من اليد. الهيام، ما لا يتمالك أن يمسك باليد منه لليونه. الدكداك، ما التبد بالأرض منه. العانك، ما تعقد منه حتى لا يقدر البعير على المسير فيه.

ترتيب كمية الرمل.
قال الثعالبي: الكثير يقال له العقنقل. فإذا نقص، فهو كثير. فإذا نقص، فهو عوكل. فإذا تقص عنه، فهو سقط. فإذا نقص عنه فهو عداب. فإذا نقص، فهو لبب.
وقال في كتابه الغريب: إذا كانت الرملة مجتمعة، فهي العوكلة. فإذا انبسطت وطالت، فهي الكثيب. فإذا انتقل الكثيب من موضع إلى آخر بالرياح وبقي منه شيء رقيق، فهو اللبب. فإذا نقص فهو العداب.

تفصيل أسماء الطرق وأوصافها
قال الثعالبي: المرصاد والنجد، الطريق الواضح؛ وكذلك الصراط والجادة والمنهج واللقم والمحجة، وسط الطريق ومعظمه. واللاحب، الطريق الموطأ. المهيع، الطريق الواسع. الوهم، الطريق الذي يرد فيه الموارد. الشارع، الطريق الأعظم. النقب والشعب، الطريق في الجبل. الخل، الطريق في الرمل. المخرف، الطريق في الأشجار. ومنه الحديث: عائد المريض في مخارف الجنة. النسيب، الطريق المستقيم؛ وقيل أنه المستدق الواضح، كطريق النمل والحية وحمر الوحش. والله أعلم.

الباب الثالث
في طول الأرض ومسافاتها
من القسم الرابع من الفن الأول
في طول الأرض ومسافاتها

ذهب المتكلمون في ذلك أن مسافة الأرض خمسمائة عام: ثلث عمران، وثلث خراب، وثلث بحار؛ وأن مقدار المعمور من الأرض مائة وعشرون سنة: تسعون منها ليأجوج ومأجوج، واثنا عشر للسودان، وثمانية للروم، وثلاثة للعرب، وسبعة لسائر الأمم.
وقيل أن الدنيا سبعة أجزاء: ستة منها ليأجوج ومأجوج، وواحد لسائر الناس. وقيل أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: للسودان منها اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانية آلاف فرسخ، ولفارس ثلاثة آلاف، وللعرب ألف.
وقال وهب بن منية: ما العمارة من الدنيا في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء. وقال أردشير بن بابك: إن الأرض أربعة أجزاء: جزء منها للترك جزء للعرب، وجزء للفرس. وجزء للسودان. وقيل: أن الأقاليم سبعة، والأطراف أربعة، والنواحي خمسة وأربعون، والمدائن عشرة آلاف، والرساتيق مائتا ألف وستة وخمسون ألفاً وقال الخوارزمي صاحب الزيج: دور المعمور سبعة آلاف فرسخ، وهو نصف سدس الأرض، والجبال، والمفاوز، والبحار. والباقي خراب يباب لا نبات فيه ولا حيوان. ومثل المعمور بصورة طائر، رأسه الصين، والجناح الأيمن الهند والسند، والجناح الأيسر الخزر، وصدره مكة والعراق والشام ومصر، وذنبه الغرب.
وزعم أصحاب الهيئة أن قطر الأرض سبعة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلاً، وأن دورها عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. وذلك جميع ما أحاطت به من بر وبحر. وإنما علم ذلك وحرر من عبد الله المأمون، وذلك أنه لما أشكل عليه ما ذكره المتقدمون من مقدار الأرض بعث جماعة من أهل الخبرة بالحساب والنجوم - منهم علي بن عيسى - إلى برية سنجار. وتفرقوا من هناك. فذهب بعضهم إلى جهة القطب الشمالي، وذهب آخرون إلى جهة القطب الجنوبي،وسار كل منهم في جهته إلى وصل غاية ارتفاع الشمس نصف النهار، وقد زال وتغير عن الموضع الذي اجتمعوا فيه وترفقوا منه، مقدار درجة واحدة. وكانوا قد ذرعوا الطريق في ذهابهم، فنصبوا السهام، ووتدوا الأوتاد، وشدوا الحبال. ثم رجعوا وامتحنوا الذرع ثانية، فوجدوا مقدار درجة واحدة من السماء سامتت وجه بسيط الأرض ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل."والميل أربعة آلاف ذراع؛ والذراع ست قبضات؛ والقبضة أربع أصابع؛ والإصبع ست شعيرات، بطون بعضها إلى بعض؛ والشعيرة ست شعيرات من شعر الخيل".فضربت هذه الأميال في جميع درجات الفلك، وهي ثلثمائة وستون درجة، فخرج من الضرب عشرون ألف ميل وأربعمائة ميل. فحكم بأن ذلك دور الأرض.
وقال أبو زيد أحمد بن سهل البلخي: مسافة طول الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب نحو من أربعمائة مرحلة، ومسافة عرضها من حيث العمران الذي من جهة الشمال " وهو مساكن يأجوج ومأجوج" إلى حيث العمران من جهة الجنوب "

وهو مساكن السودان" مائتان وعشرون مرحلة؛ وما بين براري يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الجنوب خراب ليس فيه عمارة.
ويقال إن مسافة ذلك خمسة آلاف فرسخ. حكى هذه الأقوال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر رحمه الله.

الباب الرابع

الأقاليم

من القسم الرابع من الفن الأول

في الأقاليم السبعة

ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل إقليم منها كأنه بساط ممدود، طوله من المغرب إلى المشرق، وعرضه من الجنوب إلى الشمال.
فأما الإقليم الأول. فمبدؤه من مشرق أرض الصين إلى مدائن أبوابها. وهي الأنهار التي تدخل السفن فيها من البحر إلى المدائن الجليلة مثل خانقو وخانفور. وفيه جزيرة سرنديب. ومن أرض اليمن ما كان جنوبياً من صنعاء، مثل ظفار وحضرموت وعدن. وفيه من بلد النوبة دنقلة؛ ومن بلد السودان غانة. ثم ينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من خط الاستواء إلى مقدار ما يبعد عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة.
وذهب بعض الناس إلى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط الاستواء اثنتي عشرة درجة ونصف وربع درجة، وفيما بين هذا العرض وخط الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهائم. وعد فيه بطليموس من البلاد ذوات العروض ستين مدينة.وأهل هذه الإقليم سود، وهو قليل الساكن لإفراط حره.
أما الإقليم الثاني. فيبتدئ من بلاد الصين، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية مثل تانة،وصيمور، وسندان؛ ومن بلاد السند على المنصورة وديبل، ثم يبلغ عمان. ويكون فيه من أرض العرب: نجران، وهجر، وجنابة، ومهرة، وسبأ، وتبالة، والطائف، وجدة، ومكة، والمدينة، ومملكة الحبشة، وأرض البجة، وأسوان، وقوص، والصعيد الأعلى ، وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الأول إلى سبعة وعشرين درجة واثنتي عشرة دقيقة.
وزعم بطليموس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة. وأهله بين السمرة والسواد، وهو كثير الذهب.
أما الإقليم الثالث. فمبدؤه من شرق أرض الصين، وفيه مدينة مملكتها، حمدان؛ وفيه من بلاد الهند تانش والقندهار، ومن بلاد السند المولتان وقزدار. ثم يمر ببلاد سجستان، وكرمان، وفارس، وأصبهان، والأهواز، والبصرة، والكوفة، وأرض بابل، وبلاد الجزيرة، والشام، وفلسطين، وبيت المقدس، والقلزم، والتيه، وأرض مصر، والإسكندرية، وبلاد برقة، وإفريقية،

وتاهرت، وبلاد طنجة، والسومن، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الثاني في العرض إلى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة.
وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة. وأهله سمر.
وأما الإقليم الرابع. فمبدؤه من أرض الصين، ويمر على التبت والحنق، ثم على بلاد قشمير، ووخان،وتل حسان، وكابل، والغور، وهراة، وبلخ، وطخارستان، ويمتد إلى الرى، وقم، وهمذان، وحلوان، وبغداد، والموصل، وأذربيجان. ويمتد على منبج، وطرسوس، والثغور، وأنطاكية، وجزيرة قبرس. وصقلية، ثم على الزقاق إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الإقليم الثالث في العرض إلى تتمة تسع وثلاثين درجة وعشرين دقيقة.
وزعم بطلميوس أن فيه مائة وثلاثين مدينة. وأهله بين السمرة والبياض.
وأما الإقليم الخامس. فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج إلى كاشغرا، وبلاساغون، وفرغانة، وإسبيجاب، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى وخوارزم، وبحر الخزر إلى باب الأبواب، وبرذغة، وميافارقين، ودروب الروم، وبلادهم. ثم يمر على رومية الكبرى، وأرض الجلاقة، وبلاد الأندلس؛ وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم الرابع إلى تمام ثلاث وأربعين درجة وثماني عشر دقيقة.
وذكر بطلميوس أن فيه سبعة وتسعين مدينة. وأكثر أهله بيض.
وأما الإقليم السادس فمبدؤه من مساكن ترك المشرق، وهم الخرخيز، والكيمال، والتغزغز، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها، واللان، والسرير، وأرض برجان، ثم على قسطنطينية، وأفرنجة، وشمال الأندلس، وينتهي إلى البحر المحيط؛ وعرضه من غاية الأقليم الخامس إلى تمام سبعة وأربعين درجة وخمسة عشر دقيقة.
وزعم بطلميوس أن فيه ثلاثة وثلاثين مدينة، وهو كثير الإمداد والثلوج. وأهله بيض الأبدان، شقر الشعور، وأما الإقليم السابع. فليس فيه كبير عمارة، وإنما هو في المشرق غياظ وجبال يأوى إليها طوائف من الترك كالمتوحشين. ويمر على بلاد البجناك، ثم علة بلاد البلغار، قم على الروس والصقالبة، وينتهي إلى البحر المحيط. وعرضه من غاية الإقليم السادس إلى تتمة خمسين درجة ونصف. وفيه الأرض المحفورة، وهي وهدة لا يقدر أحد
أن ينزل إليها، ولا أن يصعد منها من هو فيها لبعد قعرها. يسكنها أمة من الناس لا يدرى من هم. وإنما علم أنها معمورة برؤية الدخان فيها نهارا، والنار ليلا. يشقها نهر يجري، والعمارة محيطة به.
وزعم بطليموس أن فيها ثلاثا وعشرين مدينة. وأهل الإقليم بيض صهب الشعور.

وما بقي من المعمور إلى نهايته إلى ثلاث وستين درجة مضاف إلى هذا الإقليم ومحسوب فيه. يسكنه طوائف من الناس هم بالبهائم في الخلق والخلق أشبه منهم ببني آدم.

ما يتمثل به مما فيه ذكر الأرض
يقال:أحمل من الأرض. أكتم من الأرض. أصبر من الأرض. آمن من الأرض. أوثق من الأرض. أوطأ من الأرض. أحفظ من الأرض. أكثر من الرمل. أظلم من الرمل. أعطش من الرمل. أوجد من التراب.
ويقال: قتل أرضاً عالمها، وقتل أرض جاهلها. رماه بين سمه الأرض وبصرها. أخذت الأرض زخارفها. أفق قبل أن يحفر ثراك. ابتغوا الرزق في خبايا الأرض.
ومن أنصاف الأبيات:
الأرض من تربة والناس من رجل وإن تمطر الأرض السماء.
ومن الأبيات:
والأرض لا تطعم من فوقها إلا لكي تطعم من تطعمه
قال آخر:
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع من البذر، فهي الأرض. ناهيك من أرض!
وقال آخر:
ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا، فكم تحتها قوم همو منك أرفع!
وقال آخر:
يا أرض كم وافد أتاك فلم يرجع إلى أهله ولم يؤب!
وصف الأرض وتشبيهها
قال الأخطل:
وتيهاء ممحال كان نعامها بأرجائها القصوى أباعر همل.
ترى لامعات الآل فيها كأنها رجال تعرى تارة وتسربل.
وجوز فلاة لا يغمض ركبها ولا عين هاديها من الخوف تغفل.
وكل بعيد الغور لا يهتدي له بعرفان أعلام ولا فيه منهل.
ملاعب جنان كأن ترابها إذا اطردت فيها الرياح تغربل.
ترى الثعلب الحولى فيها كأنه إذا ما علا نشز حصان محجل.
وقال ذو الرمة:
ودوية جرداء جداء خميت بها هبوات الصيف من كل جانب.
سباريت يخلو سمع مجتازها بها من الصوت، إلا من صياح الثعالب.
وقال ذو الرمة:
وهاجرة السراب من الموامي ترقص في عساقلها الأروم.
تموت قطا الفلاة بها أواما ويهلك في جوانبها النسيم.
مللت بها المقام فأرقتني هموم لا تنام ولا تنيم.
وقال ضابئ البرجمي:

وداوية تيه يحاربها القطا على من علاها من ضلول ومهتدي.
مسافهة للعيس ناء نياطها؛ إذا سار فيها راكب، لم يغرد.
وقال مسلم بن الوليد:
وقاطعة رجل السبيل مخوفة كأن على أرجائها حد مبرد.
مؤزرة بالآل فيها كأنها رجال قعود في ملأ معمد.
وقال الصاحب بن عباد:
وتيهاء لم تطمث بخف وحافر ولم يدر فيها النجم كيف يغور.
معالمها أن لا معالم بينها، وآياتها أن المسير غرور.
ولو قيل للغيث، اسقها: ما اهتدى لها ولو ظل ملء الأرض وهو جذور.
تجشمتها والليل وحف جناحه كأني سر والظلام ضمير.
وقال الشريف الرضي:
وتنوفه حصباؤها خلقت لنار القيظ جمرا.
تبدأ جنادبها الأنين أسى على المجتاز ظهرا.
وترى بها العصفور متخذا وجاز الضب وكرا.
وقال المتنبي:
مهالك لم يصحب بها الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه.
وقال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:
ومفازة لا نجم في ظلمائها يسري ولا فلك بها دوار.
تتلهب الشعرى بها فكأنها في كف زنجي الدجى دينار.
يرمي بها الغيطان فيها والربى آل كما يتموج التيار.
والقطب ملتزم لمركزه بها فكأنه في ساجه مسمار.
قد لفنا فيها الظلام وطاف بي ذئب يلم مع الدجى زوار.
طراق ساحات الديار معاور خبث لأبناء السرى غدار.
يسري، وقد فضح الدجى وجه الضيا، في فروة قد مسها اقشعرار.
فعشوت في ظلماء لم يقدح بها إلا لمقلته، وباس نار.
ورفلت في خلع على من الدجى عقدت بها من أنجم أزرار.
والليل يقصر خطوه، ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار.
وقال آخر:
مجهولة الأعلام طامسة الصوى إذا عسفتها العيس بالركب، ضلت.
إذا ما تهادى الركب في فلواتها، أجابت نداء الركب فيها فأصدت.
وقال مسعود أخو ذي الرمة يصف بعد فلاة:
ومهمهة فيها السراب يلمح يدأب فيها القوم حتى يطلحوا.
ثم يظلون كأن لم يبرحوا كأنما أمسوا بحيث أصبحوا.
وقال مسلم:

تجري الرياح بها مرضى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد.

وقال آخر:

ودية مثل السماء قطعتها مطوقة آفاقها بسمائها.

وقال بعض الأعراب في الآل:

كفي خزنا أني تطاللت كي أرى ذرى علمي دمخ فما يريان!

كأنما، والآل ينجاب عنهما من البعد عيناً برفع خلقان.

قال أبو هلال: وهذا من أغرب ما روي من تشبيهات القدماء.

وقال آخر:

والآل تنزو بالصوى أمواجه نزوالقطا الكدري في الأشراك.

والظل مقرون بكل مطية مشى المهار الدهم بين رماك.

وقال ابن المعتز:

وما راعني بالبين إلا ظعائن دعون بكائي، فاستجاب سواكبه.

بدت في بياض الآل والبعد دونه كأسطر رق أمرض الخط كاتبه.

الباب الخامس

من القسم الرابع من الفن الأول

الجبال

قال الله تعالى: وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم. وقال المفسرون: خلق الله عز وجل الأرض على الماء فمادت وتكفأت، كما تتكفأ السفينة، فأثبتها بالجبال. ولولا ذلك ما أقرت عليها خلقا.

وروى أبو حاتم في كتاب العظمة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تعالى لما خلق الأرض، جعلت تميد. فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال، وقالت: يا رب هل خلقت خلقاً أشد من الجبال؟ قال: الحديد، قالت: فهل من خلق أشد من الحديد؟ قال: النار، قالت: فهل من خلق أشد من النار؟ قال: الماء، قالت: فهل من خلق أشد من الماء؟ قال: الريح، قالت: فهل من خلق أشد من الريح؟ قال: ابن آدم، يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض. فبعث الله ريحاً فعصفت الماء فأبرز عن حشفة في موضع البيت. فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها بالجبال. فكان أول حبل وضع، جبل أبي قبيس. وهو الجبل المطل على الكعبة. وفي كنيته بأبي قبيس قولان: أحدهما أن آدم كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس "وقد تقدم بيان ذلك في الباب الرابع من القسم الثاني من هذا الفن في ذكر النيران".

الثاني أنه أضيف إلى رجل من جرهم كان يتعبد فيه،اسمه أبو قبيس. ويقال فيه أبو قابوس، وشيخ الجبال. وكان من قبل

يسمى بالأمين. وقال محمد بن السائب الكلبي: أن الله عز وجل لما خلق الأرض، مادت بأهلها. فضربها
بجبل السراة فاطمأنت. وهو أعظم جبال العرب وأكثرها خيرا، ويسمى الحجاز. وهو الذي حجز بين تهامة ونجد. فتهامة من جهته الغربية مما يلي البحر، ونجد من جهته الشرقية. وهو أخذ من قعر عدن إلى أطرار الشام. ويسمى هناك جبل لبنان. فإذا تجاوز اللاذقية ومر بالثغور، سمي جبل اللكام. ثم يميد في بلاد الروم إلى بلاد أرمينية، فيسمى هناك حارثة وحويرثا. ثم يمتد إلى بحر الخزر، وفيه الباب والأبواب. وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ق والقرآن المجيد إنه جبل محيط بالعالم من زمرده خضراء، وإن جبال الدنيا متفرعة عنه.
وقال قوم: إن السماء مطبقة عليه والشمس تغرب فيه، وهو الحجاب الساتر لها عن أعين الناس، في أحد الوجوه المفسر بها قوله تعالى: حتى توارت بالحجاب. وقال قوم: إن منه إلى السماء مقدار ميل، وأن الذي يرى من خضرة السماء مكتسب من لونه.
وقال ابن حوقل : جميع الجبال الموجودة في الدنيا متفرعة عن الجبل الخارج من بلاد الصين، مشرقاً ذاهباً على خط مستقيم إلى بلاد السودان مغربه.
وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: وجدت خلف خط الستواء في الجنوب وقبل الإقليم الأول جبالاً تسعة:
خمسة منها متقاربة المقادير، أطوالها ما بين أربعمائة ميل إلى خمسمائة ميل؛ وجبلا طوله سبعمائة ميل؛ وجبل القمر، وطوله ألف ميل؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الأول؛ وجبلا بعضه وراء خط الاستواء، وبعضه في الإقليم الثاني.
قال: ومجموع ما عرف في الأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلا منها في الإقليم الأول سبعة عشر جبلا، وفي الإقليم الثاني تسع وعشرون جبلا، وفي الإقليم الثالث أحد وثلاثون جبلا، وفي الإقليم الرابع أربع وعشرون جبلا، وفي الإقليم الخامس تسعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم السادس أربعة وعشرون جبلا، وفي الإقليم السابع أربعة وأربعون جبلا.
أسماء ما ارتفع من الأرض
إلى أن يبلغ الجبيل، ثم ما ارتفع عن ذلك إلى أن يبلغ الجبل العظيم وترتيب ذلك. وقال الثعالبي في كتابه المترجم بفقه اللغة وأسنده إلى أئمتها: أصغر ما ارتفع من الأرض النبكة؛ ثم الرابية أعلى منها؛ ثم الأكمة؛ ثم الزبية؛ ثم النجوة، ثم الريع؛ ثم القف؛ ثم الهضبة "وهو الجبل المنبسط على الأرض"؛ ثم القرن "وزهو الجبل الصغير"؛ ثم الدك "وهو الجبل الذليل"؛ ثم الضلع "وهو الجبل الذي ليس بالطويل"؛ ثم النيق "وهو الجبل الطويل"؛ ثم الطود؛ ثم الباذخ والشامخ؛ ثم الشاهق؛ ثم

المشمخر؛ ثم الأقود والأخشب؛ ثم الأيهم؛ ثم القهب "وهو العظيم"؛ ثم الخشام.
ترتيب أبعاض الجبل
قال الثعالبي: أول الجبل الحضيض، وهو القرار من الارض عند أصل الجبل. ثم السفح، وهو ذيله. ثم السند، وهو المرتفع في أصله. ثم الكيح، وهو ما أطاف به. ثم الريد، وهو ناحيته المشرفة على الهواء. ثم العرعرة، وهي غلظة ومعظمة. ثم الحيد، وهو جناحه. ثم الرعن، وهو أنفه. ثم السعفة، وهي رأسه.
وقال صاحب كتاب الفاخر: يقال من أسماء الجبال: العظيم منها الطور، والطود، والكفر، والقهب، والعمود، والعلم، والأرعن، والمشمخر. والأيهم الطويل وهو الشامخ، والشاهق، والباذخ، والباسق، والأقود. والأخشب، والخشن. والعقاب، الصعاب. والثنايا، التي ليست بصعبة. والهرشم، النخر. والخشام، جبل طويل ذو أنف. والوزر، والملجأن والقلعة، ما يحصن فيه. والقرن، جبل صغير. والضلع والدك، فيه دقة وانحناء. والنيق، الذي لا يستطاع أن يرتقى إليه. وأعلى الجبل قلته وقنته وذؤابته. وعرعرته، غلظه. والفند، القطعة منه. وشعفه ومصاده، أعلاه. والكيح والكاح، عرضه. والركح، ناحيته المشرفة على الهواء. والخضيض، أسفله. قال: وصغار الجبال، اليفع، والضرس، والضرب، والعنتبية، والعنتوت، والأكمة، والهضبة.
والذريحة ما انبسط على وجه الأرض. واللوذ، حضن الجبل وما يطيف به. والريد والربود، نواحيه المحددة. والحيد، شاخص يتقدم كالجناح. ومثله الشنعوف. والصدع والشقب، شق فيه. والغار والكهف، مثل البيوت فيه. والقردوعة، الزاوية فيه. واللهب والنفنف والغار، مهواة بين جبلين. والشؤون، خطوط فيه. والمخرم، منقطع أنفه. والقرناس، شبه الأنف. والإرم، العلم فيه. ترتيب مقادير الحجارة قال الثعالبي: إذا كانت صغيرة فهي حصاة.
فإذا كانت مثل الجوزة وصلحت للاستنجاء بها، فهي نبلة. وفي الحديث: اتقوا الملاعن وعدوا النبل. يعني عند إتيان الغائط. فإذا كانت أعظم من الجوزة فهي قنزعة. فإذا كانت أعظم منها وأصلحت للقذف، فهي مقذاف ورجمة ومرداة. ويقال: إن المرداة، حجر الضب الذي ينصبه علامة لحجره. فإذا كانت ملء الكف، فهي يهير.
فإذا كانت أعظم منها، فهي: فهر، ثم جندل، ثم جلمد، ثم صخرة، ثم قلعة. وهي التي تنقلع ن عرض الجبل. وبها سميت القلعة التي هي الحصن. وقال صاحب كتاب الفاخر: من أسمائها الحجارة، والجلمود والجلمد الحجر الصلب. والبرطيل، الصخرة العظيمة. والصفوان، الأملس. والرضمة، الحجر العظيم. والأتان، صخرة في مسيل ماء أو حافة نهر. والإزاء،

التي عند مهراق الدلو. والرجمة، ما تطوى به البئر. والكذان، الرخو. واليرمع، الأبيض الرخو. والمدق والمداك والصلاية، حجر العطار الذي يسحق عليه العطر. والفهر، ما يملأ الكف ويسحق به العطر. والمرداة، ما يكسر به الحجر. والمرداس ما يرمى به في البئر لينظر أفيها ماء أم لا. قال الشاعر:

من جعل العد القديم الذي أنت له عدة أحراس،
إلى ظنون أنت من مائه منتظر رجعة مرداس.

والنشف، حجر تدلك به الرجل في الحمام. والنقل، ما كان في طرق الجبال. والأثقية. ما ينصب عليه القدر. والقلاعة، ما يرمى به في المقلاع. والظران، حجارة محددة يذبح بها. والصفيح، ما رق منه عرض. واللخاف، حجارة عراض. والفلك، قطعة مستديرة وترتفع عما حولها. والمدملك، المدور. والكليت، حجر مستدير يسد به وجار الضبع. والبليت، التام. وقال ابن الأعرابي: القبيلة، صخرة على رأس البئر، والعقابان من جنبتيها يعضدانها. ومنها المرو، وهي البيض كالحصى. والحصباء، الصغار. والرضراض، نحوها. والقضيض، أصغر منها. والزنانير، واحدها زنير، أصغر ما يكون.

ما يتمثل به من ذكر الجبال والحجارة

ما جاء من ذلك على لفظ أفعل. يقال: أثقل من ثهلان. أثقل من نضاد. أثقل من أحد. أصلب من الحجر. أصلب من الجندل. أقسى من الحجر. أصبر من حجر. أيبس من صخر. أبقى من النقش في الحجر.

ويقال: رمي فلان بحجره. رد الحجر من حيث جاءك. وجه الحجر وجهة ما، أي دبر الأمر على وجهه. ألقمه الحجر، أي جاوبه بجواب مسكت. رماه بثالثة الأثافي. أنجد من رأى حضنا "وحضن جبل بنجد" أي من رآه لم يحتج أن يسأل هل بلغ نجداً أم لا. الليل يواري حضنا، أي يخفي كل شيء حتى الجبل.

ومن أنصاف الأبيات:

كأنه علم في رأسه نار إذا قطعنا علما بدا علم

قوموا انظروا كيف تزول الجبال
يضرب لموت الرؤساء
جندلتان اصطكتا اصتكاكا
يصرب لقرنين يتصاولان

ومن الأبيات:

ولو بغى جبل يوما على جبل، لانهد منه أعاليه وأسفله!
تتناثر الأطواد وهي شوامخ حتى تصير مداوس الأقدام.
جد فقد تنفجر للصخرة بالماء الزلال.

في وصف الجبال وتشبيهها

قال السموءل بن عاديا:

لنا جبل يحتله من نجيره منيع يرد الطرف وهو كليل!

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا يرام طويل!

قال إبراهيم بن خفاجة الأندلسي:

أرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب.
يصد مهب الريح من كل وجهة ويزحم ليلا شبهه بالمناكب.
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي ناظر في العواقب.
يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب.
أضحت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل السرى بالعجائب.
وقال: ألا كم كنت ملجأ فاتك وموطن أواه وموئل تائب!
وكم مر بي من مدلج ومؤوب وقال بسفحي من مطي وراكب!
ولا طم من نكب الرياح معاطفي وزاحم من خضر البحار جوانبي!
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى فطارت بهم ريح النوى والنوائب.
وما غيض السلوان دمعي كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب.
فسلى بما أبكى، وسر بما شجى، وكان على ليل السرى خير صاحب.
وقلت وقد نكبت عنه مطيتي: سلام فأنا مقيم وذاهب!

وقال أيضاً عفا الله عنه:

وأشرف طماح الذؤابة شامخ تمنطق بالجوزاء ليلا، له خصر.
وقور على مر الليالي كأنما يصيخ إلى نجوى وفي أذنه وقر.
تمهد منه كل ركن زكا به فقطب إطراقا وقد ضحك البدر.
ولاذ به نسر السماء كأنما يجر إلى وكر به ذلك النسر.
فلم أدر من صمت له وسكينة أكبرة سن وقرت منه أم كبر.

وقال أيضاً يصفه نثرا من رسالة كتبها لبعض الرؤساء:

وكيف لي بقربك ودونك كل علم باذخ، مج الليل عليه رض به، وصافحت النجوم هضابه؛ قد ناء بطرفه؛ وشمخ بأنفه، وسال الوقار على عطفه، قد لاث من غمامه عمامه، وأرسل من ربابه ذؤابه؛ تطرزها البروق الخواطف، وتهفو بها الرياح العواصف؛ بحيث مده البسيط بساطا، وضريب السماء فسطاطا.

الباب السادس:

من القسم الرابع من الفن الأول

في البحار والجزائر

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما أراد الله عز وجل أن يخلق الماء خلق ياقوتة خضراء ووصف من طولها وعرضها وسمكها، ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء يترقرق

لا يثبت في ضحضاح. فما يرى من التموج والاضطراب إنما هو ارتعاده من خشية الله تعالى؛ ثم خلق الريح فوضع الماء على منته؛ ثم خلق العرش ووضعه على متن الماء.
وفسر بهذا قوله عز وجل: وكان عرشه على الماء.
بحار المعمور من الأرض
وبحار المعمور ثلاثة: أعظمها البحر المحيط، ثم ما نطيش، ثم بحر الخزر. فأما البحر المحيط وجزائره، ويسمى باليونانية أوقيانوس، ويسمى بحر الظلمات، سمي بذلك لأن ما يتصاعد من البخار عنه لا تحلله الشمس لأنها لا تطلع عليه. فيغلظ ويتكاثف فلا يدرك البصر هيئته. ولعظم أمواجه، وتكاثف ظلمته، وغلظ مائه، وكثرة أهوائه، لم يعلم العالم من حاله إلا بعض سواحله وجزائره القريبة من المعمور. والذي علم به من الجزائر ستة من جهة المغرب، تسمى جزائر السعادات، والجزائر الخالدات.
قال أبو عبيد البكري في كتابه المترجم بالمسالك والممالك: وبإزاء طنجة الجزائر المسماة باليونانية، فرطناتس أي السعيدة. وسميت بذلك لأن في شعرائها وغياضها كلها أصناف الفواكه الطيبة من غير غراسه ولا فلاحة، وأن أرضها تحمل الزرع مكان العشب،وأصناف الرياض بدل الشوك. وهي متفرقة متقاربة.
ويقال إن بعض المراكب عصفت عليها الريح فألقتها إلى جزيرة من هذه الجزائر، فنزل من فيها من الركاب إليها، فوجدوا فيها من أنواع أشجار الفواكه وأشجار الأفاويه وأنواع اليواقيت كل مستحسن. فحملوا منه ما أطاقوا ودخلوا به بلاد الأندلس.
فسألهم ملكها من أين لهم هذا. فأخبروه بأمرهم. فجهز مراكب وسيرها، فلم يقفوا على جزيرة منها. وعدمت المراكب لعظم البحر وشدة عصف الريح فلم يرجع منها شيء.
ويقال إن هذه الجزائر مسكونة بقوم هم الوحوش أشبه منهم بالناس. وبينها وبين ساحل البحر عشرة أجزاء.
ويقال إن في جهة المشرق مما يلي بلاد الصين ستة جزائر أخرى، تسمى جزائر السيلي. يقال إن ساكنيها قوم من العلويين، وقعوا إليها لما هربوا من بني أمية. ويقال أن جزائر السيلي لم يدخلها أحد من الغرباء وطاوعته نفسه على الخروج منها لصحة هوائها ورقة مائها، وإن كان منها في عيش قشيف.
وفي هذا البحر من الجزائر العامرة جزيرة برطانية، وهي تحاذي جزيرة الأندلس، وأهلها صهب الشعور، زرق العيون.د
ومما يلي بلاد إفرانسية جزائر يعمرها خلق من الفرنج، لا ينقادون لبلد، ولا يدينون بدين. وفيما يلي الأرض الكبيرة جزيرة ذات أبرجة، تحيط بها سبعمائة ميل وخمسون ميلا،وفيهاأربع مدائن، وفي كل مدينة ملك.
وجزيرة برغافة. يحيط بها أربعة آلاف ميل، وفيها ثلاث مدائن عامرة. والداخل إليها قليل. وهي كثيرة الأنواء والأمطار.

وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم، ويجعلونه في بيت ويوقدون النار حوله حتى يجف.
وجزيرة أنقلطرة. فيها مدائن عامرة، وحبال شاهقة،وأودية، وأرض سهلة، والشتاء بها دائم، وبين هذه الجزيرة والبر مجاز سعته اثنا عشر ميلا. وفيه مما يلي الصقالبة جزيرتان: إحداهما جزيرة أمر نانيوس النساء، لا يسكنها غير النساء فقط. وتسمى الأخرى أمرنانيوس الرجال، ولا يسكنها غير الرجال. وهم في كل عام
يجتمعون زمان الربيع، ويتناكحون نحو شهر ثم يفترقون. ويقال إن هاتين الجزيرتين لا يكاد يقع طرف أحد عليهما لكثرة الغمام، وظلمة البحر، وعظم الأمواج.

ما يتفرع من البحر المحيط
يتفرع من البحر المحيط خليجان: أحدهما من جهة المغرب، ويسمى البحر الرومي. والآخر من جهة المشرق، ويسمى البحر الصيني، والهندي، والفارسي، واليمني، والحبشي، بحسب ما يمر عليه من البلاد. وهما المرادان بقوله تعالى: "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان". أي لا يبغي هذا على هذا.
والبرزخ أرض بين الفرما التي هي على بحر الروم، وبين مدينة القلزم التي هي على بحر الحبش، مسافتها ثلاثة أيام. وقيل: البرزخ إرسال ماء البحر الحلو على ماء البحر الملح، لأنه مغيض له. فلا سبيل لأحدهما على الآخر، بل جعل الله بينهما حاجزا وهو البرزخ. فإما البحر الرومي وجزائره، فإن المؤرخين قالوا إن الإسكندر حفره وأجراه من البحر المحيط. يقولون إن جزيرة الأندلس وبلاد البربر أرضا واحدة يسكنها الإشبان والبربر.
وكان بعضهم يغير على بعض، والحرب بينهم سجال. فلما ملك الإسكندر، رغب إليه فيما يحول بينهم وبين البربر. فرأى أن يجعل بينهما خليجا من البحر يمكن به احتراس كل طائفة من الأخرى. فحفر زقاقا طوله ثمانية عشر ميلا، وعرضه اثنا عشر ميلا. وبنى بجانبيه سكرين، وعقد بينهما قنطرة يجاز عليها، وجعل عليها حراسا يمنعون الجوار عليها من جهة البربر إلا بإذن من جعله ناثبا عنه في بلاد الإشبان. وكان قاموس البحر أعلى من أرض الزقاق، فطما وغطى السكرين والقنطرة، وساق بين يديه بلادا وطغا على أخرى. حتى إن المسافرين فيه يخبرون أن المراكب في بعض الأوقات يتوقف سيرها فيه مع وجود الريح. فيسبرون أمرها؛ فيجدون المانع لها سلوكها بين شرفات السور أو بين حائطين. فعظم طولا وعرضا،وصار بحرا.
قال صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر: وقد زاد عرضه ستة أميال عما كان عليه في زمن الإسكندر. فصار ثمانية عشر ميلا.
قال: وزعم السالكون فيه أن البحر ربما جزر في بعض الأوقات، فترى القنطرة. قالوا: وهذا الزقاق صعب شديد متلاطم الأمواج

مهول، شبيه بما جاوره من البحر المحيط. وأهل الأندلس يقولون إن بين هذا البحر وبين البحر المحيط بحرا يسمونه بحر الأيلاية بتفخيم اللم. وهو بحر عظيم الموج صعب السلوك.
ومبدأ جريه من البحر الرومي من الإقليم الرابع. فإذا خرج من الزقاق يمر مشرقا في جهة بلاد البربر وشمال المغرب الأقصى إلى أن يمر بالمغرب الأوسط، إلى إفريقية، إلى برقة، وإلى الإسكندرية، إلى شمال أرض التيه وأرض فلسطين. فيمر بسواحل الشام إلى أن يصل إلى السويدية التي هي فرضة أنطاكية، وعندها حجز البحر. ومنها يعطف فيمر على العلايا وأنطاكية "وهما فرضتان لبلاد الروم"، ثم على ظهر بلاد قسطنطينية إلى أن ينتهي إلى المكان الذي منه خرج. وطوله خمسة آلاف ميل،وقيل ستة آلاف. وعرضه مختلف: ففي موضع ثلثمائة ميل، وموضع ستمائة ميل، وفي موضع سبعمائة.
ويقال إن فيه ما يزيد على مائة وسبعين جزيرة. كانت عامرة بطوائف من الفرنج، أخرب المسلمون أكثرها بالمغازي في صدر الإسلام.
وأجل ما ملك المسلمون منها، ثم انتزع أكثره من أيديهم: جزيرة الأندلس. وجزيرة يابسة. وهي حيال جزيرة الأندلس، ومسافتها يومان في يوم. وفيه مدينة صغيرة مسورة. وجزيرة منرقة، ومسافتها يومان ونصف يوم، وفيها مدينة عامرة. وجزيرة ميورقة. ويقال فيها مايورقه. ومسافتها يومان في يومين، وبها مدينة. وجزيرة رودس. وهي حيال بلاد أفرنجة. ويحيط بها ثلثمائة ميل وفيها حصنان. وجزيرة سردانية. طولها مائتان وثمانون ميلا. وفيها ثلاث مدائن كبار. وسكانها قوم من الفرنج متوحشون. وبها معدن فضة. وجزيرة صقلية. وهي حيال إفريقية مضاهية لجزيرة الأندلس. وشكلها مثلث. يحيط بها خمسمائة ميل. كثيرة الجبال، والحصون، والأمصار، والأنهار، والأشجار.
ومما فيها من المدن المشهورة على ساحل البحر:
بلرمو. وبها يكون الملك؛ وكانت قصبة الجزيرة بعد أن فتحها المسلمون ثم انتقل الناس منها إلى الخالصة. وهي محدثة. بنيت في أيام القائم ابن المهدي العبيدي في سنة خمس وعشرين وثلثمائة. ثم صارت بلرمو وبقيت الخالصة ربضا لها؛ وقطانية. وكانت عظمية فأحرقها البركان الذي في الجزيرة. فبنى الأمبراطور مدينة عوضها، وسماها غشطارة. ومسيني. وهي على أحد أركان الجزيرة. وسرقوسة. وهي على الركن الآخر، والبحر محيط بها من ثلاث جهاتها. وطرابنش. وهي على الركن الثالث، والبحر محيط بها. ولها مجاز. ومن بلاد هذه الجزيرة البرية: والشاقة، ومازر، وكركنت، ونوطس، وطبرمين، وقصريانة، والنور، ورغوص، وغليظة، وغير ذلك.
وبهذه الجزيرة. "يقال بجزيرة ملاصقة لها" بركان، وهو أطمة يخرج منها أجسام كأجسام الناس بغير رؤوس من النار، فتعلوا

في الهواء ليلا ثم تسقط في البحر، فتطفوا على وجه الماء. فمنها يكون حجر المرو الذي تحك به الأرجل. وجزيرة بلونس. ودورها ألف ميل. ولها مجاز إلى البر الطويل، عرضه ستة أميال. فيها ما يزيد على خمسين مدينة؛ القواعد منها خمس عشرة مدينة، وهي مشهورة عند الفرنج. وجزيرة مالطة. وطولها أربعة وعشرةن ميلا، وعضها اثنا عشر وفي وسطها مدينة واحدة.
وجزيرة قوسرة. وفيها مواضع متوحشة. وجزيرة أقريطش. وهي حيال برقة. طولها ثلثمائة ميل، وعرضها مائة وثلاثون ميلا. وبها مدينتان: إحداهما تسمى الخندق، والأخرى تسمى ربض الجبن. وفيها معدن ذهب. وجزيرة قبرس. وهو اسم النحاس، لأن بها معدن النحاس. يحيط بها ألف ميل وخمسمائة ميل. وفيها من المدن الجليلة، ليسمون، والباف بباء مفخمة، والماغوطة. وكلها في البحر. وفي وسط الجزيرة مدينة الأفقسية، وهي القصبة. وبها يكون متولي الجزيرة.
ويخرج من هذا البحر خليجان أحدهما يسمى جون البنادقة، والآخر يسمى خليج كبير متسع ليس له فوهة. وإنما هو جون له ركنان، سعة ما بينهما سبعون ميلا. ويحيط بهذا الجون مدن جليلة لطائفة من الفرنج تسمى البنادقة. وهي ذوات حصون وقلاع ممتنعة. ومبدؤه من شرقي بلاد قلورية عند مدينة تسمى أذرنت، ومنتهاه بلاد إيكلاية. ومن هناك يعطف، وطوله ألف ميل ومائة ميل. وفيه ست جزائر، ثلاثة منها في ضفة، وثلاثة في أخرى، وبها مدن عامرة. وثلاثة معترضة بين ركنيه مهملة لا ساكن بها. وأما خليج القسطنطينية. ويسمى بحر نيطش فإن فوهته مقابلة لجزيرة رودس، وسعتها غلوة سهم. ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور إلا بإذن الموكل بها.
ويمر هذا الخليج نحو مائتي ميل وخمسين ميلا إلى أن ينتهي إلى القسطنطينية فتكون في غربيه، ويحيط بجهتين منها. وهي مدينة عظيمة مشهورة. وعرض البحر عندها أربعة أميال. ثم يمر ستين ميلا حتى ينصب في بحر ما نيطش. وهو بحر سوداق. وعرض فوهته هناك عشرة أميال. وفي موضع أقل، وفي موضع أكثر.
فهذا البحر الرومي وجزائره وما تفرع منه. والله أعلم.
وأما بحر الهند وجزائره فمبدؤه من مشرق الصين فوق خط الاستواء. ويجري إلى جهة الغرب، فيجتاز ببلاد الواق، وبلاد سفالة الزبخ، ثم ببلاد الزبخ حتى يصل إلى بلاد بربرا، وهناك حجزه.
وأما الشرقي: فمبدؤه من لوقين، وهي أول مرافئ الصين ثم بخانقو فرضة الصين العظمى؛ ثم إلى سمندور من بلاد الهند؛ ثم إلى حارتين، إلى قندرينه، إلى تانه، إلى سنددابور، إلى بروص "ويقال بروج، وإليها ينسب القماش البروجي"، إلى

صيمور، إلى سندان، إلى سوتارة، إلى كنباية. "وإليها ينسب القماش الكنبايتي"، إلى دبيل "وهي أول مرافئ السند"؛ ثم إلى سرون، ثم إلى التير من بلاد مكران، وهي أحد ركني الخليج الفارسي. والركن الآخر
يسمى رأس الجمجمة: وهو جبل خارج في البحر، ومن هناك يسمى بحر اليمن، ثم يمتد على ظفار؛ ثم على الشحر ساحل بلاد مهرة؛ ثم على شرمة ولسعا "ساحلي بلاد حضرموت"، ثم على أبين، ثم على عدن، ثم المخنق، ثم العارة، ثم يمتد إلى باب المندب.
ومن هناك يخرج خليج القلزم، وطوله ثمانية آلاف ميل، وعرضه يختلف. في موضع ألف ميل وسبعمائة ميل، وفي موضع ألفان، وفي موضع دون ذلك. ويقال: إن بينه وبين البحر بحرا آخر يسمى البحر الزفتي، سمي بذلك لظلمته وسواده، وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وهذا البحر - أعني الهندي - بجملته قسمه السالكون له ست قطع، وضعوا لها أسماء مختلفة.
فالذي يمر بأرض الصين يسمى بحر صنجي، ينسب لمدينة في جزيرة من جزائره. وهو بحر كثير الأمواج مهول. فإذا كان في أول هياجه ظهر فيه بالليل أشخاص سود، طول الواحد منهم خمسة أشبار وأقل من ذلك. يصعدون إلى المراكب ولا يضرون أحدا. فإذا عاينهم السفار، أيقنوا بالدمار. وإذا قدر الله تعالى نجاتهم من هذه الشدة. أراهم على رأس الدقل طائرا أبيض كأنما خلق من النور، فيتباشرون به. فإذا ذهب عنهم الروع، فقدوه.
وفيه من الجزائر المعمورة:
جزيرة شريرة. يحيط بها ألف ميل ومائتا ميل. فيها مدائن كثيرة، أجلها المدينة التي تنسب إليها، ومنها يجلب الكافور.
وجزيرة صنجي. وإليها تنسب هذه القطعة. وطولها مائتا ميل؛ وعرضها أقل من ذلك. وفيها جواميس وبقر بغير أذناب.
وجزيرة أنفوجة. يحيط بها أربعمائة ميل. عمارتها متصلة. ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الصنف. وفي جزيرة من جزائره مدينة. وهو بحر خبيث كثير الأمطار والرياح الشديدة. وفي جباله معادن الذهب والرصاص، وفيه مغاص اللؤلؤ، وفي غياضه الخيزران. وفيه مملكة المهراج. ويشتمل على جزائر لا تحصى، ولا يمكن المراكب أن تطوف بها في سنة. وفيها أنواع الطيب من الكافور، والقرنفل، والعود، والصندل، والجوزبوي، والبسباسة، والكبابة.
ومن جزائره المشهورة:
جزيرة الزانج. وتكسيرها سبعمائة فرسخ، وبها يكون المهراج، وهو اسم يطلق على من ملكها. وجزيرة البركان، وهي جزيرة فيها جبل يرمي بالشرر ليلا، وبالرعود والقواصف نهارا، وهي أحد آطام الدنيا المشورة. وجزيرة قمار. وإليها ينسب العود القماري. وبها شجر الصندل. دورها أربعة أشهر. وهي مأوى

عباد الهند وعلمائهم. ويسمى ملكها قامرون. وجزائر الرامي. وهي نحو ألف جزيرة معمورة. بها الملوك. وفيها معادن الذهب، وشجر الكافور.
وجزائر لنجيالوس. ويقال لنكيالوس. وهي كثيرة، وأهلها سود، مشوهو الصور لقربها من خط الاستواء. وبها معادن الحديد.
ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر لاروي، وبحر كله، وبحر الجاوه، وبحر فنصور. وإنما ترادفت عليه هذه الأسماء بحسب ما يمر عليه من البلاد والجزائر. وهو بحر لا يدرك قعره. وفيه نحو ألف جزيرة النارجيل، لكثرته بها. وكلها عامرة بالناس. وبين الجزيرة والجزيرة الفرسخ والفرسخان. وليس يوجد في سائر جزائر البحر ألطف صنعة من أهل جزائره في سائر المهن. وبيوت أمواله الودع.
ومن جزائره المشهورة مما يلي أوائل بلاد الهند: جزيرة الماند. وهي جزيرة يحيط بها ألف ميل. وفيها ثلاث مدن كبار. وجزيرة بلي. منسوبة لمدينة من الهند على ساحله. يأتيها التجار لأجل الفلفل. وجزائر الذئاب. وهي كثيرة. وأكبرها جزيرة ديني. وسكانها قبائل من العرب. ويحيط بها أربعمائة ميل. وفيها الموز، وقصب السكر.
وجزيرة السيلان. وطولها ستمائة ميل. وعرضها قريب من ذلك. وفيها مدن كثيرة. وإليها ينسب العود السيلي. وجزيرة كله. وإليها ينسب البحر. وهي جزيرة خطيرة، طولها ثمانمائة ميل، وعرضها ثلثمائة ميل وخمسون ميلا. وبها من المدن فنصور. وفيها شجر الكافور "وفيها العود الفاخر" وملاير، ولاروي، وكله "وإليها ينسب الدهن". ولكل مدينة من هذه المدن خور تعبره المراكب من البحر. وجزيرة صندابولات. وطولها نحو من مائتي ميل، وعرضها نحو مائة ميل. تنسب إلى مدينة هي فيها.
وجزائر بداميان. فيها أمم سود، قباح الوجوه. قامة الرجل منهم أقل من ذراع. ليس لهم مراكب. فإذا وقع إليهم غريق أو من يتيه من التجار، أكلوه. ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر هركند، وفيه جزائر كثيرة. ويقال إن عدتها ألف جزيرة وتسعمائة جزيرة. ويقع فيها العنبر الذي تكون القطعة منه مثل البيت. وسكانها أحذق الناس في الحياكة، ينسجون القميص بكمية ودخاريزه قطعة واحدة.
وفيه من الجزائر المشهورة: جزيرة سرنديب. وهي مدورة الشكل، يحيط بها ألف فرسخ. يشقها جبل الرهوان، وهو الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام" من الجنة. وفي أوديتها الياقوت والماس والسبناذج. وطولها مائتان وستون ميلا.
ومدينة هذه الجزائر العظمى تسمى أغنا، يسكنها مسلمون، ونصارى، ويهود، ومجدوس، ولكل أهل ملة من هذه الملل خاكم. لا ينبغي بعضهم على بعض. وكلهم يرجع إلى ملك يسوسهم ويجمع كلمتهم. ولهذا البحر أربعة أودية تصب في البحر تسمى الأغباب.

ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر اليمن. وأوله بحر الجمحة، وهو بلاد مهرة. معترض في البحر فيمر بحاسك"وهو أول مرافئ اليمن"؛ ثم يمر بمرباط "ساحل بلاد ظفار"؛ ثم يمر بالشجر "ساحل بلاد مهرة"؛ ثم بشرمة ولسعا "ساحلي بلاد حضرموت"؛ ثم بأبين، ثم بعدن، ثم بالمخنق، ثم بالعارة، ثم الباب بالمندب.
وفيه من الجزائر المشهورة:
جزيرة سقوطرة. وطولها نحو من مائة وثمانين ميلا، وعرضها في الوسط نحو خمسة عشر ميلا. وبها الصبر. يسكنها قوم من اليونان، تغلبوا على من كان فيها من الهند في زمن الإسكندر. وبها عيون يقال إن الشراب منها يزيد في العقل. ولهذا سميت في الكتب القديمة جزيرة العقل. ويلي هذه القطعة قطعة تسمى بحر الزنج، وبحر بربرا؛ ويسمى ساحله الزنجبار.
وفيه مما يلي بلاد اليمن جزائر. منها: جزيرة دعون. وهي مدورة وجزيرة السود. وجزيرة حورتان. وجزيرة مروان. وفيها مدن يسكنها السراق، وهي مقابلة لبلاد مهرة. وجزائر الديجبات. وهي كثيرة. وأهلها مفرطون في السواد. وجميع ما عندهم أسود، حتى قصب السكر والكافور.
وجزيرة القمر. وتسمى جزيرة ملاي. وطولها أربعة أشهر، وعرض الواسع منها ما يريد على عشرين يوما. وهي تحاذي جزيرة سرنديب. وفيها بلاد كثيرة أحلها كيدانة، وملاي "وإليها تنسب الجزيرة" ودهمي، وبليق، وخافورا، ودعلي، وقمرية "وإليها ينسب القمر" .ويقال: إن بهذه الجزيرة خشبا، ينحت من الخشبة منه شان يكون طوله ستين ذراعا، يجذف على ظهره مائة وستون رجلا. ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل محلات يسكنونها في سفح جبل يعرف بهم. ومنها خرج نهر النيل.
ويخرج من هذا البحر الذي يجمع هذه القطع خليجان أحدهما بحر القلزم، والآخر بحر فارس. فأما خليج القلزم. فخروجه من باب المندب. وهو جبل طوله اثنا عشر ميلا. وسعة فوهته بمقدار أن الرجل يرى صاحبه من البر الآخر. فإذا قارب المندب يمر في جهة الشمال، بغلافقة، والأهواب "وهما ساحلا زبيد" ثم الجردة، ثم الشرجة، ثم عثر "وكانت مقر ملك قديم" ثم بالسرين، وحلي، وعسفان، والجار"وهي فرضة المدينة" والجحفة، والصفراء، والحوراء، ومدين، وأيلة، والطور، وفاران، ثم القلزم "وكانت مدينة مسكونة، وكذلك أيلة". ومن القلزم ينعطف من جهة الجنوب فيمر بالقيصر "وهي فرضة لقوص" ثم إلى عيذاب "وهي فرضة لبلاد البجة"، ثم يمتد إلى زيلع "وهي ساحل بلاد الحبشة" ويتصل ببربرا.
وطوله ألف ميل وخمسمائة ميل. وعرضه في مواضع أربعمائة ميل، ودون ذلك إلى مائتي ميل إلى ما دون ذلك.

وهو بحر كريه المنظر والرائحة. وفيه فيما بين القلزم وأيلة المكان المعروف بتاران، وهو مكان يشبه دردور عمان. لأنه في سفح جبل إذا وقفت الريح على دردورته انقطعت بنصفين على شعبتين متقابلتين؛ ثم يخرج من كمي هاتين الشعبتين، فيثير البحر فتتلبد السفن باختلاف الريح فلا تكاد تسلم.
وهاتان الشعبتان تسميان الجبلين، ومقدار هذا الموضع ستة أميال، ويسمى بركة الغرندان. ويقال: إنها التي أغرق الله فرعون وقومه فيها. فإذا كان للجنوب أدنى مهب، فلا يمكن سلوكه. وفيه من الجزائر خمس عشرة جزيرة، العامر منها أربعة، وهي: جزيرة دهلك. يحيط بها نحو مائتي ميل؛ ويسكنها قوم من الحبوش، مسلمون.
وجزيرة سواكن. وهي أقل من ميل في ميل. وبينها وبين البحر الحبشي بحر قصير يخاض. وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسد وهم مسلمون، ولهم بها ملك. وجزيرة النعمان. وبها نويس تعيش من لحوم السلاحف. وجزيرة السامري. يسكنها قوم من اليهود، سامرة، في عيش قشيف. وأما خليج فارس. فإنه مثلث الشكل على هيئة القلع. أحد أضلاعه من تيز مكران. فيمر في بلاد كرمان على هرمز، ومن بلاد فارس على سيراف، ونوح، ونجيرم، وجنابة، ودارين، وسينيز، ومهروبان؛ ومنها يفضي البحر إلى عبادان، ومن عبادان ينعطف الضلع الآخر فيمر بالخط، وهو ساحل بلاد عمان إلى صور، وهي ساحل بلاد عمان مما يلي بلاد اليمن؛ ثم يمتد إلى رأس الجمحة منبلاد مهرة.
والضلع الآخر يمتد على سطح البحر من تيز مكران إلى رأس الجمحة. وهذه الأضلاع غير متفاوتة في الطول؛ فإن الضلع الذي يمتد على سطح البحر طوله خمسمائة ميل، وطول الضلع الآخر من حيث يبتدئ من تيز مكران إلى أن ينتهي إلى عبادان ثم ينعطف إلى أن يصل إلى رأس الجمحة، تسعمائة ميل.
وفيه مما يلي عبادان مكان يعرف بالدردور. وهو بين جبلين، أحدهما يسمى كسير، والآخر عوير، ويضاف إليهما جبل آخر بالقرب منهما يقال فيه وأخر ما فيه خير لشدة ما يرى بها من الأهوال. وهي جبال سود ذاهبة في الهواء يتكسر الماء على شعبها. ولا بد للمراكب أن تمر بينها، وقلما تسلم.
وفي هذا البحر من الجزائر المشهورة على ألسنة التجار تسع، منها أربعة عامرة، وهي:
جزيرة خارك. يحيط بها اثنا عشر ميلا.وهي عامرة آهلة كثيرة البساتين. وبها مغاص اللؤلؤ. وجزيرة كيش. وبها مغاص اللؤلؤ أيضاً، وهي آهلة، وتسمى هذه الجزيرة في عصرنا هذا قيس.
وجزيرة أوال. وهي تجاه ساحل البحرين، وبينهما يوم. وبها مدينة. وأوال مدينة من مدائن البحرين. وجزيرة لافت. وتعرف بجزيرة بني كاوان. وطولها اثنان وخمسون ميلا، وعرضها تسعة أميال. وهي آهلة. وهاتان الجزيرتان معدودتان في بلاد جور من أعمال فارس.

ويقال أيضاً إنه يخرج من البحر المحيط خليج ثالث في شمال الصقالبة، ويمتد قرب بلد بلغار المسلمين، ويسمى بحر أدريك، منسوب إلى أمة على ساحله في جهة الشمال، ثم ينحرف نحو المشرق؛ وبين ساحله وبين أقصى بلاد الترك أرضون وجبال مجهولة خربة. فهذا البحر المحيط وما يتفرح عنه.
وأما بحر مانيطش ويسمى البحر الأسود. وهي مدينة على ساحله. هي فرضة لبلاد القفجاق مما يلي القسطنطينية. وعليه أيضا للقفجاق مدينة عظيمة قرم، مقصودة من كل الجهات. وبها علماء، وفقهاء، ورؤساء، وهي محدثة. مصرت فيما بين الثلاثين والأربعين وستمائة للهجرة النبوية. ويسمى هذا البحر أيضا بحر الروس، لجزائر فيه يسكنها أمة تسمى الروس، نصارى، وهو بحر ضخم كثير الأخوار والتروش والجبال الجرش. وطوله من الشمال إلى الجنوب ألف ميل وثلثمائة، وعرضه مختلف. ففي موضع ستمائة ميل، وفي موضع ثلثمائة ميل. والناس مختلفون فيه، فمنهم من يقول إنه بحر مستقل بنفسه، يخرج منه خليج القسطنطينية ويصب في بحر الروم أو هو مغيض لخليج القسطنطينية. وأكثرهم على أنه بحر مستقل بنفسه لطوله وعرضه وكثرة جزائره. وبعضهم يقول أنه خليج يخرج من البحر المحيط على ظهر بلاد الصقالبة، ويحيط به بلد البطلمية، وبلاد الغامانية، وبلاد الأزكشية، وبلاد الشركسية، وبلاد العلان والعنكر والناشقرد.
وفيه ست جزائر عامرة، وهي كثيرة المدن والقرى، يسكنها الروس. وأما بحر الخزر وهو بحر جرجان وطبرستان والديلم. وذلك بحسب ما يمر عليه من البلاد وهو - على ما حكاه ابن حوقل - مدور الشكل، ليس له اتصال ببحر آخر. قال: ولو أن إنساناً طاف به، لانتهى إلى الموضع الذي ابتدأ منه، لا يقطعه عن ذلك إلا نهر يصب فيه. وفي شرقي هذا البحر بعض بلاد الديلم، وبلاد طبرستان، وجرجان، وبعض المسافة التي بين جرجان وحوارزم؛ وغربيه بلاد أران، وبلاد الخزر، وبعض مفازة الغرية؛ وشماليه مفازة الطغزغزية؛ وجنوبيه الجيل، والديلم، وطوله ثمانمائة ميل، وعرضه ستمائة ميل. وقال صاحب كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق: طوله من جهة الخزر إلى عين الهم ألف ميل، وعرضه من ناحية جرجان إلى مصب نهر إتل ستمائة ميل، وخمسون ميلا وهو يقطع عرضا من طبرستان إلى مدينة باب الأبواب في أسبوع بالريح الطيبة، وفيه أربع جزائر، وهي: جزيرة سياكوه. وهي تجاه آبسكون، فرضة جرجان. يسكنها طائفة من الترك. يصاد بها البزاة البيض.
وجزيرة سهلان. وطولها نحو مائة ميل، وعرضها نحو خمسين ميلا. وجزيرة البركان. وهي أطمة عظيمة تظهر منها نار في الهواء، كأشمخ ما يكون من الجبال. ترى من نحو مائة فرسخ من البر. وجزيرة تجاه باب الأبواب. كثيرة المروج والأنهار. وهذا البحر يقال إنه كثير التنانين. وقد اختلف فيها. فمن الناس من

يقول إنها دواب تعظم في قعر البحر فتؤذي ما به من دواب، فيبعث الله عز وجل عليها السحاب والملائكة فتخرجها من البحر وتقلبها في أرض يأجوج ومأجوج، فتكون طعاما لهم. هذا مما يحكى عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من رأى أنها ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وتلحق بالسحاب، كالزوبعة التي تثور في الأرض وتسدير ثم تطول في الهواء. فيتوهم الناس أنها حيات سود. وسائر البحار تمد وتجزر، خلا هذا البحر.
ويقال أن علة المد والجزر تكون عن وضع الملك الموكل بقاموس البحر عقبه في أقصى بحر الصين، فيفور فيكون منه المد؛ ثم يرفعه فيكون من رفعه الجزر. "ومنهم من روى مكان العقب الإبهام" ومنهم من قال أن العلة فيه غير هذا كله. والله أعلم!

ما في المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب
وفي المعمور بحيرات مالحة:
فالذي اشتهر منها: بحيرة خوارزم. وشكلها مثلث كالقلع، وليس في المعمور بحيرة أعظم منها. يحيط بها أربعمائة فرسخ. يصب فيها نهرا سيحون وجيحون، الذان في أرض الهياطلة، وغيرهما من الأنهار العظيمة الجارية في بلاد الترك. وهي مع ذلك لا تزيد ولا تعذب. وزعم صاحب كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق إن في هذه البحيرة حيواناً يظهر على سطحها في صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعا، بلغة لا تفهم ثم يغوص.
وظهوره عندهم يدل على موت ملك من ملوك ذلك الحين. ومنها بحيرة الطريخ: لسمك صغير يصاد منها ويحمل إلى سائر بلاد أرمينية وأذربيجان. وطولها أربع مراحل، وعرضها مرحلة. يجمع من أطرافها البوق. والسمك يوجد بها في زمان مخصوص يأتيها في نهر يصب إليها، ويكثر حتى يصاد بالأيدي. فإذا انقضى ذلك الزمان، لا يوجد منه شيء البتة.
وفي بلاد أذربيجان بحيرة كوبوذان. وكبوذان قرية في جزيرة، يسكنها ملاحو المراكب التي يركب فيها من هذه البحيرة. وطول هذه البحيرة نحو ثلاثة أيام، وعرضها كذلك. وفيها جزائر: منها جزيرة فيها قلعة حصينة تسمى تلا. ولا يكون بهذه البحيرة حيوان البتة، لأن ماءها منتن رديء.
وفي بلاد البحرين بحيرة. وبها بالبحر الكبير سميت أرض هجر: البحرين. وفي الشام بأرض الغور بحيرة زغر، وتسمى المتنة والميتة. لأنها لا يعيش بها حيوان ولا يتكون فيها شيء مما يتكون في المياه الجارية والراكدة من الحيوانات وطولها ستون ميلا، وعرضها اثنا عشر ميلا.

ويقال إنها ديار قوم لوط التي خسفهم الله بها. ويقال إنها كانت خمسة مدن، أسماؤها: ضيعة، و ضوعة، و عمرة، و دوما، و سدوم، وكانت سدوم أكبرها وأعظمها. ويصب في هذه البحيرة نهر الأردن وغيره من الأنهار الصغار والسيول من بلاد الكرك وغيرها، فلا تزيد. ويقال أن لها منفذ إلى بحر القلزم.
وبساحلها الشرقي إلى حد أريحا معدن الكبريت الأبيض، يحفر عليه ويخرج. ويتكون في هذه البحيرة على شكل ممر، ويطفو على وجهها ويتفق، فيجمع منه شيء أسود يسمونه الحمر وينقل إلى قلعة الكرك يدخربها، يدخل في النفط.
وفي أعمال مصر بحيرة تنيس، مقدارها إقلاع يوم في "عرض" نصف يوم. يكون ماؤها في أكثر السنة ملحاً من دخول ماء البحر الرومي إليها، فإذا مد النيل صب فيها فتحلو فإذا جزر ملحت.
ويقال: إنه كان في مكانها برمسلوك تغلب عليه البحر في ليلة واحدة، فما كانت أرضه مستفلة غرق وما كانت أرضه عالية مثل تنيس وتونة بقي. وفي وسط هذه البحيرة جزيرة صغيرة تسمى سنجار، يسكنها قوم صيادون. وقال إبراهيم بن وصيف شاه في كتاب العجائب الكبير: إن بحيرة تنيس كانت أجنة وكروما ومنازل ومنتزهات، وكانت مقسومة بين ملكين من ولد أتريب بن مصر، وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً، فأنفق المؤمن ماله في وجوه البر حتى باع حصته من أخيه ويفرق مالها أيضاً، فأصلحها أخوه وزاد فيها غروساً وفجر فيها أنهارا وبنى فيها بنياناً،
واحتاج أخوه إلى ما في يده فكان يمنعه ويفتخر عليه بما في يده من المال والأجنة، فخاطبه أخوه في بعض الأيام فسطا عليه، وقال: أنا أكثر منك مالا وولدا وخيرا، فقال له أخوه: فما أراك شاكراً لله تعالى على ما رزقك، ويوشك أن ينزع ذلك منك.
ويقال: إنه دعا عليه فغرق ماء البحر ما كان له في ليلة واحدة.
وقيل: أن هذين اللذان ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز، فقال: "واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنين" الآيات، والله تعالى أعلم.
وبالقرب من الإسكندرية بحيرة، طولها إقلاع يوم وعرضها كذلك، يدخل إليها الماء من بحر الروم من مكان الأشتوم، ويخرج منها إلى بحيرة أخرى دونها في خليج عليه مدينتان، أحدهما تسمى الجدية،والأخرى تسمى أتلو كثيرة المقات والنخل، وكلها في الرمل. ويصب في البحيرة خليج من النيل يسمى الحافر طوله نصف يوم إقلاعاً، وهو كثير الطير والسمك والعشب.
وفي بلاد أفريقية بحيرة بنزرت ماؤها ملح، وطولها ستة عشر ميلا، وعرضها ثمانية أميال. وعلى عشرة أميال منها بحيرة ماؤها عذب تسمى بحيرة متيجة. فإذا جاء الشتاء وكثرت السيول، غاضت بحيرة بنزرت، وفاضت بحيرة متيجة حتى تمدها ستة شهور فلا يحلو ماؤها؛ فإذا انقضى زمن الشتاء وجاء الصيف، غاضت بحيرة متيجة، وفاضت بحيرة بنزرت فلا يملح ماؤها. ويصاد في هذه البحيرة في كل شهرين من شهور السنة

نوع من السمك لا يخالطه غيره؛ وأهل الناحية يعرفون دخول الشهر بتغيير السمك فيها.
وحكى صاحب كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر: إن بتخوم بلاد أرمينية بحيرة يكون فيها الماء والسمك والطير ستة أشهر كوامل، ثم تجف فلا يرى فيها ماء ولا سمك ولا طير سبع سنين، فإذا كانت السنة الثامنة ظهر ذلك فيها ستة أشهر ثم ينقطع. وهذا دأبها مدى الزمن.
وبخلاط بحيرة لا يرى فيها سمك ولا ضفدع ولا سرطان عشرة أشهر من السنة، ثم يظهر ذلك كله في الشهرين الباقيين
وبقرية من ناحية ينجهير من بلاد خراسان بحيرة، ما غمس فيها شيء إلا ذاب: حديداً كان أو خشباً.
وكذلك بركة النطرون التي بأرض مصر ما وقع فيها شيء إلا صار نطرونا حتى العظم والحجارة.

ذكر ما يتمثل به مما فيه ذكر البحر
"ما جاء من ذلك على لفظ أفعل"
يقال: أعمق من البحر. أندى من البحر. ويقال: حدث عن البحر ولا جرح.
ومن أنصاف الأبيات:
وهل يملك البحر أن لا يفيضا؟ ومن ورد البحر استقل السواقيا!
أنا الغريق، فما خوفي من البلل؟
ومن الأبيات:
هو البحر إلا أنه عذب مورود وذا عجب أن العذوبة في البحر!
وقال ابن الرومي:
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه سفلا، وتعلو فوقه جيفه.
ومثله قول الآخر:
كمثل البحر يغرق فيه حي ولا ينفك تطفو فيه جيفه.
وقال ابن الرومي:
ألا فارجه واخشه إنه هو البحر: فيه الغنى والغرق!
وقال أبو نواس:
من قاس غيركم بكم قاس الثماد إلى البحور!
وقال آخر:
إذا كنت قرب البحر مالي مخلص إليه، فما يغني اقترابي من البحر!
قال آخر:
كالبحر يقذف للقريب جواهرا منه ويرسل للبعيد سحائباً
في وصف البحر وتشبيهه
قال ابن رشيق عفا الله عنه:
البحر مر المذاق صعب لا جعلت حاجتي إليه.
أليس ماء ونحن طين؟ فما عسى صبرنا عليه؟
وقال ابن حمديس:

لا أركب البحر، أخشى غلي منه المعاطب!
طين أنا وهو ماء، والطين في الماء ذائن.

وقال آخر:

وزاخر ليس له صوله إلا إذا ما هبت الريح.
فهو إذا ما سكنت ساكن كأنما الريح له روح.

وقال أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت:

تناهى البحر في عرض وطول، وليس له على التحقيق كنة.
وأعجب كلما شاهدت فيها سلامتنا على الأهوال منه.
فحسبي أن أراه من بعيد وأهرب فوق ظهر الأرض عنه.

ومما وصف به البحر والسفن

قال بشر بن أبي خازم:

أطاعن صفهم ولقد أراني على زوراء تسجد للرياح
إذا اعترضت براكبها خليجا، تذكر ما عليه من جناح.
ونحن على جوانبها قعود، نغض الطرف كالإبل القماح.

وقال ابن تولو من أبيات:

تحث بنا فيه قلاص كأنها وعال، تبدت من جبال شواهق.
لها كافلا ماء وريح كلاهما يعلمها في الجري سبق السوابق.
إذا انحدرت؛ فالماء ألطف قائد وإن صعدت، فالريح أعسف سائق.

وقال السلامي:

وميدان تجول به خيول تقود الدارعين ولا تقاد.
ركبت به إلى اللذات طرفا له جسم وليس له فؤاد!
جرى فظننت أن الأرض وجهه ودجلة ناظر، وهو السواد.

وقال محمد بن هانئ:

معطفة الأعناق نحو متونها كما نبهت أيدي الحواة الأفاعي
إذا أعملوا فيها المجاذيف سرعة، ترى عقربا منها على الماء ماشيا.
إذا ما ورزن الماء شوقاً لبرده، صدرن - ولم يشربن - غرثى صواديا.

وقال الرسمي:

لم نزل مشفقين مذ قيل : سارت بك دهم قليلة الأوضاح.
أصلها البر وهي ساكنة في البحر سكنى إقامة لا براح.
هي في الماء وهي صفر من الما ء سوى نضح موجها النضاح.
فإذا أوقرت، فذات وقار؛ وإذا أخليت، فذات جماح.
وتراها في اللج ذات جناح بن وإن لم تكن بذات جناح.
من مطايا لا يغتدن ولا يس أمن سير البكور بعد الرواح.
منشآت من الجواري اللواتي لسن من صنعة الجواري الملاح.
والدت مولدات بلا حل نكاح ولا حرام سفاج.
لا من البيض بل من السود ألوا نا وذات الألواح والأرواح.
طائرات مع الرياح، طوراً كاسرات بالجري حد الرياح.

سائرات لا يشتكين سرى اللي ل ولا يرتقبن ضوء الصباح.
ساكنات بلا خضوع سكون جامحات بلا غرام جماع.
لا يخفن الغمار يقذفن فيها، ويفن المرور بالضحضاح.
إن صدمن الحصى عطبن ولا يعطبن إما صدمن حد الرماح.
ما رأى الناس من قصور على الما ء سواها يسير سير القداح.
يتسبسبن كالأساود في الخفة لا في معاداة الأشباح.
فإذا ما تقابلت، قلت: ذود من كباش تقابلت للنطاح.
شرعها البيض كالغمامات في الصي ف صحاحا منها وغير صحاح.
كم مدل بالجاه والمال فيها، وبه حاجة إلى الملاح!
قائد جنده لهم أدوات نفعها ثم فوق نفع السلاح.
فإذا البحر صال، صالوا عليها بمواض تمضي بغير جراح.
يكثرون الصياح حتى كأن السفن تجري من خوف ذاك الصياح.

ومما وصفت به البحار والسفن نثرا
وقال أبو عمرو صاحب الصلاة القرطبي يصف شانيا سافر فيه: فارقت مولاي حين أخذت للسفر عدة الحزم، وشددت عقدة العزم؛ وانتظمت مع السفر في سلك، وركبنا على اسم الله ظهر الفلك، في شان عظيم الشان، أحدقت به النطق إحداق الحيازم، وأمسكته لإمساك الأبازم؛ ثم تتبع خلله فسد، ورخوه فشد؛ حذراً على ألواحه من الإنخاع،واتصلت بعرانيسه اتصال الجلود بالأضلاع؛ ثم جلببت جلبابا من القار، ومخ في المتنين ولبفقار؛ فامتاز بأغرب ميسم، وعاد كالغراب الأعصم؛ قد حسن منه المخبر، وكأن الكافور قد قرن فيه بالعنبر، له من التماسيح أجنابها، ومن الخطاطيف أذنابها؛ واستقلت رجله بفراشها، استقلال السهام برياشها؛ وقد مد قليعه ذراعيه متلقيا من وفد الرياح مصافحه، ومستهديا منها منافخة. تقلد الحكم عليها إشتيام ذو تيقظ واستبصار، واستدلال على الأعماق والأقصار؛ يستدل باختلاف المياه إذا جرى، ويهتدي بالنجوم إذا سرى؛ قد جعل السماء مرآة ينظر فيها، ويحذر من دجن يوافيها؛ فإذا أصدأها الظلام بحنادسه، وصقلها الضياء بمداوسه، يسبح الله فيمصبحه وممساه، ويبسمل في مجراه ومرساه، ويذكر ربا يحفظه ولا ينساه. قد اتخذ فيه مولتيه، من أنجد النواتية؛ مشمرين الأثواب، مدبرين بالصواب؛ يفهمون عنه بالإيماء، ويتصرفون له تصرف الأفعال للأسماء؛ ويترنمون عند الجذب والدفع، والحط والرفع: بهيمنة تبعثهم على النشاط. والجمام، وتؤديهم في عملهم بالتمام. فخرجنا ونفح الريح نسيم، ووجه البحر وسيم؛ وراحة الريح تصافح عبابه مصافحة الخل، وتطوي جناحه طي السجل؛ وتجول من لججه أبرادا، وتصوغ منحبكه أزرادا: كأنما ترسم في أديم رقشا، أو تفتح في فصوص نقشا. قلما توسطنا ثبج البحر، وصرنا منه بين السحر والنحر؛ صحت

الريح من سكرها، وطارت من وكرها؛ فسمعنا من ددوي البحر زئرا، ومن جبال الشاني صفيرا؛ ورأيناه يزبد ويضطرب، كأنه بكأس الجنوب قد شرب؛ واستقبلنا منه وجه باسر، وطارت من أمواجه عقبان كواسر؛ يضطرب ويصطفق، ويختلف ولا يتفق؛ كأن الجو يأخذ بنواصيها، ويجدبها من أقاصيها؛ والشاني تلعب به أكف الموج، ويفحص منها بكلكله فوجا بعد فوج؛ ويجوب منها ما بين أنجاد وأغوار، وخنادق وأسوار؛ والبحر تحتتنا كأرض تميد بأهلها، وتتزلزل بوعرها وسهلها؛ ونحن قعود، دود على عود؛ قد نبت بنا من القلق أمكنتنا، وخرست من الفرق ألستنا؛ والرش يكتفنا من كل جانب، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب. فشممنا ريح الموت وظننا التلف والفوت؛ وبقينا في هم ناصب، وعذاب واصب؛ حتى انتهينا إلى كنف الجون،وصرنا منه فيكن وصون؛ وهدأ من البحر ما استشرى، وتنادينا بالبشرى؛ ووطئنا من الأرض جددا، ولبسنا أثواب الحياة جددا!

ومن رسالة لأبي عامر بن عقال الأندلسي عفا الله عنه جاء منها: وكان جوازه، أيده الله على بحر ساكن، قد ذل بعد استصعابه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه؛ وصار حيه ميتا، وهديره صمتا؛ وجباله لا ترى بها عوجا ولا أمتا، وضعف بعد تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيه. فعبر آمناً من لهواته، ممتلكاً لصهواته؛ على جواد يقطع البحر سبحا، ويكاد يسبق الريح لمحا؛ لا يحمل لجاماً ولا سراجا، ولا يعرف غير اللجة سرجا؛ فلله هو من جواد، له جسم وليس له فؤداً؛ يخترق الهواء ولا يرهبه، ويركض في الماء ولا يشربه!

ومن رسالة للأستاذ ابن العميد في مثل ذلك جاء منها: وكأن العشاريات وقد رديت بالقار، وحليت باللجين والنضار؛ عرائس منشورة الذوائب، مخضوبة الحواجب؛ موشحة المناكب، مقلدة الترائب؛ متوجة المفارق، مكللة العواتق، فضية الحلل والقراطق؛ أو طواويس أبرزت رقابها، ونشرت أجنحتها وأذنابها؛ وكأنها إذا حدت
في اللحاق، وتنافست في السباق؛ نوافر نعام، أو حوافل أنعام، أو عقارب شالت بالإبر، أو دهم الخيل واضحة الحجول والغرر؛ وكأن المجاذيف طير تنفض خوافيها، أو حبائب تعانق حبائب بأيديها.

الباب السابع

العيون والأنهار والغدران

من القسم الرابع من الفن الأول

في العيون والأنهار والغدران

وما وصفت به البرك والدواليب والنواعير والجداول

قال الله تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض". قال المفسرون: هو المطر. ومعنى سلكه

أدخله في الأرض، وجعله عيونا ومسالك ومجاري كالعروق في الجسد.
قال أبو الفرج، قدامة بن جعفر: مجموع ما في المعمور من الأنهار في الأقاليم السبعة مائة نهر واربعة وثمانون نهرا، منها: في الإقليم الأول ثلاثة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الثاني تسعة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الثالث ستة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الرابع أربعة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم الخامس ثمانية وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم السادس ستة وعشرون نهرا؛ وفي الإقليم السابع ثمانية وعشرون نهرا.
ثم قال: وفي هذه الأنهار ما جريانه من الشرق إلى الغرب، كنهر نهاوند ونهر سجستان؛ وما جريانه من الشمال إلى الجنوب كدجلة؛ وما جريانه من الجنوب إلى الشمال، كنهر النيل ونهر مهران؛ وما جريانه مركب من هذه الجهات، كنهر الفرات وجيحون ونهر الكر.
وسنذكر المشهور منها.
فأما نهر النيل فزعم قدامة بن جعفر أن انبعاثه من جبل القمر وراء خط الاستواء، من عين تجري منها عشرة أنهار، كل خمسة منها تنصب إلى بطيحة. ثم يخرج من كل بطيحة نهران، وتجري الأنهار الأربعة إلى بطيحة كبيرة في الإقليم الأول. ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل.وقال صاحب كتاب نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق: "إن هذه البحيرة تسمى بحيرة كوري منسوبة لطائفة من السودان يسكنون حولها، متوحشون: يأكلون من وقع إليهم من الناس.
ومنهذه البحيرة يخرج نهر عانة، ونهر الحبشة؛ فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كوري ثم بلاد ننه "طائفة من السودان أيضاً، وهم بين كانم والوبة"، فإذا بلغ دنقلة "مدينة النوبة" عطف من غربيها إلى المغرب، وانحدر إلى الإقليم الثاني، فيكون على شطيه عمارة النوبة. وفيه هناك جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى. ثم يشرق إلى الجنادل، وإليها تنتهي مراكب النوبة انحدارا، ومراكب الصعيد إقلاعا. وهناك أحجار مضرسة لامرور للمراكب عليها إلا في إبان زيادة النيل. ثم يأخذ على الشمال فيكون على شرقيه مدينة أسوان من بلاد الصعيد الأعلى؛ ثم يمر بين جبلين هما يكتنفان لأعمال مصر، أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة مصر فتكون في شرقيه. فإذا تجاوزها بمسافة يوم، انقسم قسمين: أحدهما يمر حتى يصب في بحر الروم عند مدينة دمياط، ويسمى بحر الشرق؛ والآخر - وهو عمود النيل ومعظمه - يمر إلى أن يصب في بحر الروم أيضا عند مدينة رشيد، ويسمى بحر الغرب.
قالوا: وتكون مسافة النيل من منبعه إلى أن يصب في رشيد سبعمائة فرسخ وثمانية وأربعين فرسخا. وقيل إنه يجري في الخراب أربعة أشهر، وفي بلاد السودان شهرين، وفي بلاد الإسلام شهرا."

وروى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آان الفيلة. "قال: هذه سدرة المنتهى" وإذا أربعة أنهارنهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان، فنهران في الجنة؛ وأما الظاهران، فالنيل والفرات. وليس في الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار وتغيض، غيره. وذلك أن زيادته تكون في الفيظ الشديد فيشمس السرطان والأسد والسنبله.
وقد حكي في فضائل مصر أن الأنهار تمده بمائها، وذلك عن أمر الله تعالى. وقال قوم: إن زيادته من ثلوج يذيبها الصيف على حسب مددها، كثيرة كانت أو قليلة، وفي مدده اختلاف كثير.
وكان منتهى زيادته قديما ستة عشر ذراعا، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، بمقياس مصر. فإن زاد عن ذلك ذراعا واحدا، زاد في الخراج مائة ألف دينار: لما يروي من الأراضي العالية.
والغاية القصوى في الزيادة ثمانية عشر ذراعا في مقياس مصر. فإذا انتهى إلى هذا الحد، وكان في الصعيد الأعلى اثنتين وعشرين ذراعا: لارتفاع البقاع التي يمر عليها. فإذا انتهت زيادته، فتحت خلجانات وترع تتخرق المياه فيها يميناً وشمالاً إلى البلاد البعيدة عن مجرى النيل.
وللنيل ثمان خلجانات،وهي: خليج الإسكندرية؛ وخليج دمياط؛ وخليج منف؛ وخليج المنهى" حفره يوسف الصديق عليه السلام"؛ وخليج أشموم طناح؛ وخليج سردوس " حفره هامان لفرعون"؛ وخليج سخا؛ وخليج حفره عمرو بن عاص، يجري إلىأن يصب فيه السباخ.
ويحصل لأهل مصر إذا وفى النيل ستة عشر ذراعا- وهي قانون الري- فرح عظيم: بحيث أن السلطان يركب في خواص دولته وأكابر الأمراء في الحراريق إلى المقياس، ويمد فيه سماطا يأكل منه الخواص والعوام، ويخلع على القياس، ويصله بصلة مقررة له في كل سنة. وقد ذكر بعض المفسرين للكتاب العزيز أن يوم وفاء النيل هو اليوم الذي وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع، وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون " قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى". والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق في هذا الوقت.
ومتى قصر النيل عن هذا النقدار، غلت الأسعار. وهو إذا ابتدأ في زيادته يكون مخضرا، ثم محمرا، ثم كدرا. وإذا انتهى في الزيادة غشي الأرض، وتصير القرى الروابي فلا يتوصل إليها إلا في المراكب أو على الجسور الممتدة التي تنفق عليها الأموال الكثيرة وتتخذ لحفظ الماء. فإذا انتهى رأى مكان وأخذ حده، قطع جسر ذلك المكان من مكان معروف "يعرفه خولة البلاد ومشايخها" يروى منه الجهة التي تليها مع ما تجمع فيها من

الماء المختص بها. ولولا إتقان هذه الجسور وحفر الترع لقل الانتفاع بالنيل.
وقد حكي أنه كان يرصد لعمارة الجسور في كل سنة ثلث الخراج لعنايتهم بها: لما يترتب عليها من المصالح، ويحصل بها من النفع في ري البلاد.
وقد وصفت بعض الشعراء، النيل في طلوعه وهبوطه، فقال:

واهاً بهذا النيل أي عجيبة بكر بمثل حديثها لا يسمع!
يلقى الثرى في العام وهو مسلم حتى إذا ما مل عاد يودع.
مستقبل مثل الهلال، فدهره أبدا يزيد كما يزيد ويرجع.

وللشعراء فيه أوصاف وتشبيهات تذكرها بعد أن شاء الله تعالى في موضعها. وهذا النهر مخالف في جريه لسائر الأنهار، لأنه يجري مما يلي الجنوب مستقبل الشمال. وكذلك نهر مهران بالسند، ونهر الأرنط، وهو نهر حمص وحماة، ويسمى العاصي لمخالفته للأنهار في جريها، وما عداها من الأنهار جريها من الشمال إلى الجنوب: لارتفاع الشمال عن الجنوب وكثرة مياهه. وهو أخف المياه وأحلاها وأعمها نفعاً وأكثرها خراجاً.
وقد حكى أنه جبى في أيام كيقاوش "أحد ملوك القبط الأول" مائة ألف ألف وثلاثين ألف دينار؛ وجباه عزيز مصر مائة ألف ألف دينار؛ وجباه عمرو بن العاص اثنا عشرة ألف ألف دينار؛ ثم رذل إلى أن جبى أيام القائد جوهر "مولى المعز العبيدي" ثلاثة آلاف ألف ومائتي دينار.
وسبب تقهقره أن الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق في حفر ترعة وإتقان جسوره وإزالة ما هو شاغل للأرض عن الزراعة كالصب والحلفاء.
وحكى ابن لهيعة أن المرتبين لذلك كانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل سبعون ألفا للصعيد، وخمسون ألف للوجه البحري. وحكى ابن زولاق أن أحمد بن المدبر لما ولى الخراج بمصر، كشف أرضها فوجد غامرها أكثر من عامرها، فقال: والله لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا. وقيل أنها مسحت أيام هشام بن عبد الملك؛ فكان ما يركبه العامر والغامر مائة ألف ألف فدان. والفدان أربعمائة قصبة، والقصبة عشرة أذرع.
واعتبر أحمد بن المدبر ما يصلح للزراعة بمصر في وقت ولايته، فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدان. والباقي استبحر وتلف.
واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما. والحراث يحرث خمسين فدانا، فكانت محتاجة إلى
أربعمائة ألف وثمانين ألف حراث
وأما الفرات فهو أحد الرافدين، ويقال الوافدين، والآخر دجلة، سميا بذلك لأنهما يجريان في جانبي بغداد: دجلة من شرقيها، والفرات من غربيها: يأتي إليها من دجلو من واسط، والبصرة، والإبلة، والأهواز، وفارس، وعمان، واليمامة، والبحرين، وسائر بلاد الهند، والسند، والصين؛ ويأتي إليها من الفرات من الموصل، وأذربيجان، وأرمينية، الجزيرة، والثغور، والشام،

ومصر، والمغرب؛ وقد تقدم ذكرنا لحديث البخاري أنه يجري من تحت سدرة المنهى.
وأما مبتدأ جريه الذي يعرفه الناس فمن مدينة قاليقيلا من نهر يسمى أودخش، ويجري مقدار أربعمائة وخمسين ميلا مغربا، ثم يخرج من جهة الجنوب حتى يمر بين ثغرة مليطة وسميساط؛ ثم إلى جسر منبج؛ ثم يعطف ويأخذ جهة الجنوب حتى يصل إلى بالس ويمر بنصيبين، والرقة، وقرقيسيا، والرحبة؛ فليتحف على عانات؛ ثم يمتد حتى يمر بهيب والأنبار. فإذا جاوزها انقسم قسمين: قسم يأخذ نحو الجنوب قليلا وهو المسمى بالعلقم، ينتهي إلى بلاد سورا وقصر ابن هبيرة والكوفة والحلة، إلى البطيحة التي بين البصرة وواسط؛ والقسم الآخر يسمى نهر عيسى، منسوب لعيسى بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو ينتهي إلى بغداد، ويمر حتى يصب في دجلة، قال المسعودي: وقد كان الأكثر من ماء الفرات ينتهي إلى بلاد الحيرة؛ ثم يتجاوزها ويصب في البحر الفارسي، وكان البحر يوم ذاك في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت، وكانت مراكب الهند والصين ترد على ملوك الحيرة فيه.
قال: والموضع الذي كان يجري فيه بين إلى زمن وضعي هذا الكتاب، يعني كتاب مروج الذهب وهو في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، ويعرف بالعتيق، وعليه كانت وقعة القادسية. وطول الفرات من حيث يخرج عند ملطية إلى أن يأتي منه إلى بغداد ستمائة فرسخ وثلاثة وعشرون فرسخا وفي شطة مدن من جزائر تعد من أعمال الفرات، وهي الريسة، والناووسة، والقصر، والحديثة، وعانات، والدالية.
وأما نهر دجلة
ويسمى السلامة، وبه سميت بغداد دار السلام على أحد القولين، والثاني السلام على الخلفاء فيها. وهذا للنهر فارز بين العراق والجزيرة، وانبعاثه من أعين بجبال آمد، ويصب إليه نهران يخرجان من أرزن الروم وميافارقين وعيون أخرى من جبال السلسة، فيمر ببلد، ثم بالموصل فيصب فيه نهر الخابور الخارج من بلاد أذربيجان على فرسخ من الحديثة.
ويسمى المجنون لحدته وشدة جريه، ثم تمر دجلة فيصب فيها الزاب الأوسط، ومخرجه من الفرات ويجري بين إربل ودقوقاء، ويصب فيدجلة أيضا الزاب الأصغر من الفرات.
وهذه الزوابي الثلاثة أنبطها زاب بن طهماسب: أحد ملوك الفرس الأول، ثم تمر دجلة بتكريت إلى أن تتجاوز سامرا قليلا فيقع فيها نهر عيسى ويمر حتى يشق بغداد. فإذا تجاوزها صب فيه نهر يخرج من بلاد أرمينية يسمى تامرا بعد أن يمر بناصلو ثم بباجسرا فيسمى النهروان، ويشق مدينة تعرف به، ثم تمر دجلة بجرجرايا والنعمانية ثم بواسط، ثم إلى البطائح، ثم تخرج منها فتمر بالبصرة وتجري حتى تنتهي إلى عبادان، وعندها تصب في البحر الفارسي. وما يمر من دجلة بالبصرة يملح إذا مد البحر فلا

يشرب منه البتة؛ ويحلو إذا جزر. فأهل البصرة ينتظرون بالاستقاء منه الجزر، وهو يمد بكرة ويجزر عشاء.
وكانت المراكب التي ترد من الهند والصين تدخل في دجلة من بحر فارس إلى مدينة المداين، فاتفق أن انبثق في أسافل كسكربثق عظيم على عهد قباذ بن فيروز فأهمل حتى طغى ماؤه وغرق غمارات وضياعا فصارت بطائح.
ويسمى هذا البثق دجلة العوراء لتحول الماء عنه. وصار بين دجلة الآن ودجلة العوراء مسافة بعيدة تسمى بطن جوخى، وهو من حد فارس من أعمال واسط إلى نحو السوس من أعمال خوزستان.
ويقال إن كسرى أنفق أموالا عظيمة على أن يحول الماء إليها فأعياه ذلك. ورامه خالد بن عبد الله القسري فعجز عنه. ومقدار مسافة جري نهر دجلة إلى أن يصب في البحر الفارسي ثلثمائة فرسخ؛ ومقدار البطائح ثلاثون فرسخا طولا وعرضا. وهي تفيض في كثير من الأوقات حتى يخشى على بغداد الغرق.
وأما نهر سجستان
ويسمى الهند مند، فيقال إن منوجهر بن أيراج بن أفريدون أنبطة. وهو يجري من عيون في بلاد الهند ويمر ببلد الغور؛ فإذا تجاوزها، مر من أعالي سجستان على بررخج، ثم على بسط، ثم على دونج فتتفرع منه أنهار تجري في شوارعها. ثم يمر عمود النهر حتى يصب في بحيرة زرة. وطول هذا النهر من حيث يبتدئ إلى نهايته مائة فرسخ. وزعم قوم أنه يخرج من نهر الكنك.
وأما نهر مهران
وهو نهر السند، فهو يشبه نيل مصر في زيادته ونقصه واصناف حيوانه وما يتفرع منه من الخلجان. وهو يستمد من أربعة أنهر: نهران يجريان من السند، نهر من ناحية كابل، ونهر من بلاد قشمير. وتجتمع فتكون نهرا واحدا،ويجري حتى ينتهي إلى الدور فيمر بها، ومن ثم نهر مهران، ثم يمر بالمولتان، ثم بالمنصورة، ثم يجري إلى ديبل. فإذا تجاوزها صب في بحر الهند على ستة أميال منها. وطوله ألف فرسخ.
وأما نهر جيحون
ويسمى بالفارسية به روذ وهو نهر بلخ. وانبعاثه من بحيرة في بلاد التبت، مقدارها طولا وعرضا أربعون ميلا، تجتمع من أنهار الختل. فإذا خرج منها مر بوخان فيسمى نهر جرياب، ويجري من المشرق إلى المغرب إلى أعلى حدود بلخ. ثم يعطف إلى ناحية الشمال إلى أن يصير إلى الترمذ، ثم منها إلى زم وآمل من بلاد خرسان. ثم يجري إلى أن يمر ببلاد خوارزم فيشق قصبتها.
فإذا تجاوزها تشعب منه أنهار وخلجان يمينا وشمالا، تصب إلى مستنقعات وبطائح يصاد فيها السمك. ثم تخرج منها مياه تجتمع وتصير عمودا واحدا، تجري مقدار أربعة وعشرين فرسخا، ثم تصب في بحيرة خوارزم. ويكون مقدار جريه من مبدئه إلى

نهايته ثلاثمائة وخمسين فرسخا. وقيل: أربعمائة. وساحله يسمى الروذبار.
ويقال إنه يخرج منه خليج يأخذ سمت المغرب حتى يقرب من كرمان، ثم يمضي حتى يصب في بحر فارس. ونهر جيحون ربما جمد في الشتاء حتى تعبر عليه القفول. قالوا: ويبتدئ جموده من ناحية خوارزم.
وأما نهر سيحون
ويسمى نهر الشاش، وهو فارز بين بلاد الهياطلة وبلاد تركستان. قال ابن حوقل: مبتدؤه من أنهار تجتمع في حدود بلاد الترك "والإسلام"، فتصير عمودا واحدا وتجري حتى تظهر في حدود أوزكند من بلاد فرغانة فتصب فيه فيعظم ويكثر ماؤه، ثم يمتد إلى فاراب. فإذا تجاوزها يجري فيبرية فيكون على جانبيه الأتراك الغزية، ويمر إلى أن يصب في نهر جيحون. وبين موقعه في النهر وبين بحيرة خوارزم عشرة أيام.
وأما نهر الكنك
وهو نهر تعظمه الهند، فينبعث من بلاد قشمير ويجري في أعالي بلاد الهند. وهم يزعمون أنه من الجنة فيعظمونه غاية التعظيم. ومن عجائبه أنه إذا ألقى فيه شيء من القاذورات، أظلم جوه ورجفت أرجاؤه وكثرت الأمطار والرياح والصواعق. وقد وصفه العتبي في التاريخ اليميني فقال:
وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه، فيرون من عين الخلد التي في السماء مغترفه؛ إذا أحرق منهم ميت ذروه فيه بعظامه، فيظنون أن ذلك طهر لآثامه؛ وربما أتاه الناسك من المكان البعيد فيغرق نفسه فيه، يرى أن هذا الفعل ينجيه. والهنود يفرطون في تعظيمه حتى إن الرجل منهم إذا أراد الفوز، أحرق نفسه وألقى رماده فيه، أو يأتي إلى النهر "وهناك شجر القنا في غاية الارتفاع، وقوم هناك بأيديهم سيوف مسلولة وخناجر" فيربط نفسه في طرف قناة، ثم يخر رأسه بيده فيبقى الرأس معلقا في طرف القناة وتسقط الجثة، أو يلقي نفسه من شاهق على تلك السيوف والخناجر فيتقطع، ومنهم من يلقي نفسه في النهر فيغرق.
وأما نهر الكر فهو نهر بأرض أرمينية.
وانبعاثه من بلاد اللان، فيمر ببلاد الأنجاز حتى يأتي تغر تفليس فيشقه ويجري في بلاد الساوردية. ثم يخرج بأرض برذعة، ويجري إلى برزنج فيصيب فيه نهر الرس. وهذا النهر هو المذكور في القرآن العزيز في قوله تعالى "وأصحاب الرس" على ما ذهب إليه بعض المفسرين. فإذا صب فيه هذا النهر، صارا نهرا واحدا يصب في بحر الخزر. ونهر الرس يخرج من أقاصي بلاد الروم، على ما زعم المسعودي.
وأما نهر إتل
وهو نهر عظيم، فهو نهر الخزر. ويمر جانبه الشرقي على ناحية خزخيز، ويجري ما بين الكيماكية والغزية. ثم يمتد غرباً على

ظهر بلغار وبرطاس والخزر. ثم ينقسم قسمين: أحدهما إلى مدينة إتل يشقها بنصفين ويجري إلى يصب في بحر الخزر، ويجري الآخر فيمر ببلد الروس حتى يصب في بحرهم وهو بحر سوداق.
ويقال إنه يتشعب منه نيف وتسعون نهرا، وإذا وقع في البحر، يجري فيه مسيرة يومين ثم يغلب عليه. وقيل إنه يجمد في الشتاء، وتبين لونه في لون البحر. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ما في المعمور من الأنهار
والعيون التي يتعجب منها
قال صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر في كتابه: "وذكر المعتنون بتدوين العجائب في كتبهم التي وضعوها لذلك أن في المعمور أنهارا وعيونا يتعجب منها إذا أخبر عنها. فذكروا منها نهر الكنك "وقد تقدم ذكره" وأن بأرض الهند مكانا يعرف بعقبة عورك فيه عين ماء لا تقبل نجسا ولا قذرا، وإن ألقي فيها شيء من ذلك، أكفهرت السماء وهبت الريح وكثر الرعد والبرق والمطر. فلا تزال كذلك إلى أن يخرج منها ما طرح فيها.
"وذكروا أن في ناحية الباميان عينا تسمى ديواش تفور من الأرض كغليان القدر؛ متى بصق فيها إنسان أو رمى فيها شيئاً من القاذورات، ازداد غليانها وفورانها وفاضت. فربما أدركت من جعل ذلك فيها فغرقته. "وبناحية الباميان أيضا عين تجري من جبل في بعض الأحيان. فإذا خرج ماؤها، صار حجر أبيض.
"وبقرية من أعمال فارس كهف بين جبال شاهقة فيه حفرة بقدر الصحفة، يقطر فيها من أعلى الكهف ماء: إن شرب منه واحد لا يفضل عنه منه شيء، وإن شرب منه ألف عمهم وأرواهم.
"وبناحية أردشير جرد عين يجري منها ماء حلو يشرب لشفية الجوف. فمن شرب منه قدحا أقامه مرة، وإن زاد فعلى قدر الزيادة. "وبدارين من أعمال فارس نهر ماؤه شروب. إذا غطت فيه الثياب خضرها. "وفي بعض رساتيق همذان عيون متى خرج منها الماء تحجر. "وبنواحيها أيضا ماء يخرج من تحت قلعة ويجري في جداول إلى بعض الرساتيق. فما تشبث منه في صدع أو شق صار حجرا صلدا، وإذا صب في خزفة وأقام فيها ثلاثة أيام ثم كسرت، وجد في جوفها أخرى قد تحجرت من الماء.
"وبناحية تفليس عين تنبع، فإذا خرج منها الماء صار حيات.
"وبأرض القدموس من حصون الدعوة بربضها حمام يجري إليها الماء من عين هناك. فإذا كان في أول شهر تموز ينبع في الحمام حيات في طول شبرين أولا، ثم في طول شبر، وتكثر. ولا توجد في غير الحمام. فإذا انقضى شهر تموز، عدمت تلك الحيات، فلا توجد إلى العام القابل.
"وبأرض أرمينية واد لا يقدر أحد ينظر إليه ولا يقف عليه ولا يدري ما هو. إذا وضعت القدر على ضفته غلت ونضج ما فيها.

وفيها واد عليه الأرحاء والبساتين. ماؤه حامض؛ فإذا نزل في الإناء، عذب وحلا.
"وبالمراغة عيون إذا خرج ماؤها لم يلبث إلا قليلا حتى يتحجر. فمنه تفرش دورهم. "وبنواحي أرزن الروم ماء يستقى فيستحجر ويصير ملحا. "وأكثر مياه بلاد اليمن تستحيل شبا. وبنواحي واحات من أعمال مصرعيون مياهها ألوان مختلفة: من الحمرة والصفرة والخضرة. تسيل إلى مستنقعات، فتكون ملحا بحسب ألوانها. "وفي هذه الناحية عيون يطبخ بمائها بدلا عن الخل. "وبنواحي أسوان منالصعيد الأعلى مستنقعات منها النفط "وكذلك بتكريت من أرض العراق.
"وبأرض كتامة من بلد إفريقية عين تسمى عين الأوقات. تجري في أوقات الصلوات الخمس. فإذا حضر جنب أوامره حائض، لا تبض بشيء من الماء. وإذا اتهم رجلان، أتت بالماء للصادق وشحت على الكاذب.
"وببلد إفريقية أيضا عين تنبع بالمداد، يكتب به أهل تلك الناحية.
"وبطرطوشة من بلاد الأندلس واد يجري رملا. قال: وذكر بعض أصحاب المجاميع أنه كان بمدينة طحا من كورة الأشمونين من صعيد مصر بئر فيها ماء معين يشرب منها طول أيام السنة فيكون الماء كسائر المياه، حتى إذا كان أول يوم من برمودة من شهور القبط فمن شرب من ذلك الماء يومئذ خدمته الطبيعة مقدار ما شرب. فإذا كان وقت الوزال عاد الماء إلى حالته الأولى، ثم لا يفعل كذلك إلا في مثل ذلك اليوم من العام القابل.
وقال: إنه كان بمدينة الأشمونين كنيسة تعرف ببوجرج إلى جانبها بئر لانداوة فيها ولا بلل في ساءر أيام السنة، فإذا كان اليوم العاشر من طوبة من شهور القبط تمتلئ تلك البئر ماء شروبا. فلا يبق أحد من نصارى ذلك البلد إلا ويأخذ من ذلك الماء للتبرك به. حتى إذا كان عند الزوال، غاض الماء فلا يبقى في البئر منه شيء ويجف لوقته.
"وبأرض مرمنيثا من عمل حصن الأكراد عين تسمى الفوارة. تكون في غالب الأوقات بينها وبين وجه الأرض تقدير ثلاثة أذرع. وتفور في بعض الأيام ويخرج منها ماء يدير أرحيه الطواحين ويسقي البساتين فيستمر كذلك بعض يوم ثم يغور. ويتكرر ذلك في الأسبوع مرتين أو ثلاثة.
"وبقلعة بعلبك من الشام بئر تعرف ببئر الرحمة لا يرى فيها الماء إلا حوصرت فإنها عند ذلك تمتلئ حتى تفيض. فإذا زال الحصار جفت".

ما يتمثل به مما فيه ذكر الماء
ما جاء من ذلك على لفظ أفعل"
الأمثال:

يقال: أسرع من الماء إلى قراره. أرق من الماء. أحمق من لاعق الماء. أحمق من القابض على الماء. أصفى من ماء المفاصل. أعذب من ماء المفاصل. أجرى من الماء. أعذب من ماء الحشرج. أعذب من ماء البارق. ألطف من الماء. أوجد من الماء.
ويقال: أن ترد الماء بماء أكيس. ماء ولا كصداء. قد بلغ الماء الزبى.
ويقال: فلان يرقم على الماء. "إذا كان حاذقا". ثأطة مدت بماء. "للأمر يزداد فسادا". ليس الري في التشاف. "في ذم الاستقصاء". الماء إذا طال مكثه، ظهر خبثه، وإذا سكن متنه، تحرك نتنه. الكدر من رأس العين. إذا عذبت العيون، طابت الأنهار. هذا غيض من فيض، وبرض من عد. "أي قليل من كثير".
ومن أنصاف الأبيات:

والمرء يشرق بالزلال البارد! كذلك عمر الماء يروي ويغرق!

والمشرب العذب كثير الزحام! مواقع الماء من ذي الغلة الصادي!

وكيف يعاف الرنق من كان صاديا؟

ومن الأبيات:

يا سرحة الماء قد سدت موارده أما إليك سبيل غير مسدود؟
لحائم حام حتى لا حيام به محلإ عن طريق الماء مصدود!

وقال آخر:

أيجوز أخذ الماء من متلهب الأحشاء صادي؟

وقال آخر:

أرى ماء وبي عطشٌ شديدٌ ولكن لا سبيل إلى الورود!

وقال آخر:

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء؟

وقال آخر:

وما كنت إلا الماء جئنا لشربه فلما وردناه إذا الماء جامد!

وقال آخر:

وفي نظرة الصادي إلى الماء حسرة إذا كان ممنوعاً سبيل الموارد!

وقال آخر:

وإني للماء المخالط للقذى إذا كثرت وراده، لعيوف!

وقال آخر:

سأقنع بالثماد، لعل دهراً يسوق الماء من حر كريم!

وقال آخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء، خانته فروج الأصابع.

وقال آخر:

(البقية في الملف الثاني)